الأعراب في كتابات الجاحظ

دراسة تاريخية نقدية

د. محمد بن صقر الدوسري
قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الملك فيصل

يعد الأعراب عنصرًا أساسيًا ومكونًا مهمًا من مكونات المجتمع الإسلامي، ولا يكاد يخلو مصدر من التعرض لهم، إلا أن ما كتب عنهم في مصادر التاريخ الإسلامي ظل مرتبطًا في جوانبه بالسياقات العامة للأحداث السياسية التي نهج المؤرخون على الاهتمام بها وتوثيقها، وهو ما لم يتح للباحثين فرصة الإلمام الكافي بجوانب أخرى من حياة الأعراب لها علاقة بالتاريخ الاجتماعي والحضاري والفكري.

على أن ما لم تستوفه المصادر التاريخية اهتمت به المصادر الأدبية التي قدمت معلومات وأخبارًا وافية، سدت من خلالها نواحي النقص وأتاحت بذلك مساحةً واسعةً من المعرفة التاريخية، فعبرت بذلك عن فهم أوسع لرؤيتها للأعراب وأحوالهم المختلفة، وساعدت إلى حد كبير على تعميق النظر ولو بشكل محدود تجاه بعض الوقائع التي ارتبطت بحياتهم.

(قدم للنشر في ١٤٣٥/٧/٧هـ، وقبل للنشر في ١٤٣٥/١٢/٢٢هـ).

ولعل من أبرز المصنفات التي عنيت بهذا النوع من المصادر كتب الجاحظ[١]، وهو وإن لم يعد مؤرخًا بالمعنى الاصطلاحي للكلمة؛ لأنه لم يكتب في التاريخ بشكل مباشر[٢]، بل إن الكتابة التاريخية في زمانه لم تكن قد استقرت قواعدها بعد، فإنه يعد من الأدباء الذين أسهموا في نقل الأخبار، ذلك لأن مصادره المتعددة أمدته بكثير من الروايات والمعلومات، كما أن فطنته وسعة أفقه إلى جوار ملكاته العقلية أمدته كلها بالقدر اللازم للدراسة والتقصي[٣]. ولذا تكتسب مصنفاته

(١) يعد الجاحظ من أشهر رجال الفكر والمعرفة في العصر العباسي، وهو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي البصري (١٥٩ - ٢٥٥هـ) الملقب بالجاحظ. يعد معتزليًا ومتكلمًا ونحويًا وإخباريًا. ولد في البصرة وتوفي فيها. ينظر: الهمذاني، القاضي عبدالجبار عماد الدين أبو الحسن بن أحمد، ت ٤١٥هـ، **فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ومباينتهم لسائر المخالفين**، تحقيق: فؤاد سيد (الدار التونسية للنشر، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ص٧٣، ابن الأنباري، أبو البركات كمال الدين عبدالرحمن بن محمد، ت ٥٧٧هـ، **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**، تحقيق: د. إبراهيم السامرائي (مكتبة المنار، الأردن، ط٣، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص١٤٨-١٥١.

(٢) للجاحظ مؤلفات كثيرة، من أبرزها: البيان والتبيين، البخلاء، الحيوان، البرصان والعميان والحولان، ومجموعة من الرسائل المتنوعة. كتب في علم الكلام والأدب والسياسة والتاريخ والجغرافيا والنبات والصناعة وغيرها، وهو ما دل على تنوع ثقافته واتساعها وثرائها. ينظر: ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق، ت٣٨٠هـ، **الفهرست**، شرح: د. يوسف علي طويل (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م)، ص٢٩٣-٢٩٥، ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله (ت٦٢٦هـ) **معجم الأدباء**، تحقيق: د. إحسان عباس (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م)، ٥/ ٢١١٨-٢١٢٠.

(٣) اعتمد الجاحظ على العقل في النظر، ومن بين أقواله في ذلك: "والأمور حكمان: حكم ظاهر للحواس، وحكم باطن للعقول. والعقل=

أهمية خاصة بوصفها لم تكتب لتكون تاريخًا، ونحن نعلم أن منهج البحث التاريخي يولي أهمية خاصة للمصنفات التي لم يقصد صاحبها أن يجعل منها تاريخًا بشكل مباشر، بوصفها أكثر صدقًا نتيجة لبعدها عن النية والقصد والتاريخ الرسمي.

ويأتي في مقدمة مصادر الجاحظ الأساسية التي أسهمت في تشكيل جزء كبير من ثقافته، أولئك الأعراب القادمون إلى مربد البصرة(٤) الذين كانوا المادة المهمة التي نقل عنها مشافهة(٥)، وكان قد كتب صراحة عن أقوالهم وعاداتهم ومزاعمهم وعلومهم، وضمت بعض مقدماته إقرارًا بذلك، ففي مستفتح كتابه عن الحيوان، قال: "هذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم؛ لأنه وإن كان عربيًا

= هو الحجة". انظر: الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، ت٢٥٥هـ، **الحيوان**، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون (دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م)، ١/ ٢٠٧. وهو منهج عكس آثاره السلبية على مسألة التلقي الشرعي، ولقد خالف المعتزلة بذلك السلف الذين أجمعوا على أن العقل والاجتهاد عمومًا يحتل المرتبة الثالثة بعد القرآن ثم السنة. ينظر: الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي، ت٧٠٩هـ، **الاعتصام**. تصحيح: أحمد عبدالشافي (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ص٣٩٨-٣٩٩.

(٤) مربد البصرة: يطلق أهل المدينة على المكان الذي يجفف فيه التمر مربدًا، أما مربد البصرة فهو موضع على بعد ثلاثة أميال من البصرة، كان في الجاهلية مخصصًا لحبس الإبل، ثم أصبح فيما بعد مكانًا لتباري الشعراء. ينظر: ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن، ت٣٢١هـ، **جمهرة اللغة**، حققه: د. رمزي منير بعلبكي (دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧م)، ١/ ٢٩٧.

(٥) ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، ٥/ ٢١٠١.

أعرابيًا، وإسلاميًا جماعيًا، فقد أخذ من طرف الفلسفة، وجمع من معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علمي الكتاب والسنة وجدان الحاسة وإحساس الغريزة، يشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك... "[٦]. وقال في موضع آخر: "كانت العادة في كتب الحيوان أن أجعل في كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الأعراب ونوادر الأشعار، لما ذكرت من عجبك ذلك، فأحببت أن يكون حظ هذا الكتاب في ذلك أوفر - إن شاء الله"[٧].

ولئن كان حظ كتاب الحيوان من ذكر الأعراب أوسع، فإن غيره من مؤلفات الجاحظ قد احتوى على نصيب وافر من أخبارهم وطرائق معيشتهم، استفرغ الجاحظ فيها جهده مما اكتسبه بنفسه أو سمعه من الأعراب، مستقيًا بعض معلوماته من الرجال العلماء الذين التقاهم[٨]، ومستثمرًا أنواعًا مختلفة من المصادر التي تعرف عليها[٩]، مستفيدًا من خبرته الطويلة في الحياة ومعرفته بأحوال الناس وخصائصهم، فأضحت كتبه بذلك من أهم المصادر التي زودتنا بمعلومات فريدة وقيمة.

---

(٦) **الحيوان**، ١/١١.

(٧) **البيان والتبيين**، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون (دار الجيل، بيروت، د. ط، د. ت)، ٣/٣٠٢.

(٨) المصدر السابق، ٤/٢٣-٢٤، السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، ت٩١١هـ، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، تحقيق: فؤاد علي منصور (دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م)، ٢/٣٤٤.

(٩) ابن النديم، **الفهرست**، ص٢٩١، ياقوت، **معجم الأدباء**، ٥/٢١٠١.

ولذا فإن هذه الدراسة تأتي لتوضح مقدار الجهد الذي بذله الجاحظ في التعريف بالأعراب وأثره في تناولاته مادته، وذلك وفق منهج وصفي تحليلي يرصد كل ما يتعلق بالأعراب في كتابات الجاحظ ويدرسها ويحللها على أسس علمية منهجية دقيقة ليعيد عرضها موضوعيًا، متوخيًا بذلك الوصول إلى نتائج تنعكس فائدتها إيجابيًا على الدراسات التاريخية المتعلقة بالأعراب.

مصطلح الأعراب:

تقدم عدة مصادر الشخصية الأعرابية في حدود التعريف المجرد من الخصوصية، على نحو ما تشير إليه كتب اللغة من كون الأعراب "صيغة جمع مفردها: أعرابي، والأعرابي: البدوي. وهم الأعراب والأعاريب جمع الأعراب. وقيل: ليس الأعراب جمعًا لعرب، ورجل أعرابي إذا كان بدويًا...."(١٠). في حين تشير بعضها إلى ارتباط التسمية بالموضع نحو القول: "العرب جيل من الناس، والنسبة إليهم عربي وهم أهل الأمصار، والأعراب منهم سكان البادية خاصة والنسبة إليهم أعرابي"(١١). وهي مفاهيم لغوية تتأرجح بين الموضع والجنس، حتى إنها تكاد تنزع من التوصيف ارتباطاته الجذرية وتحيله إلى معنى فضفاض لا هوية له، غير أنه من

(١٠) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين أحمد بن مكرم، ت٧١١هـ، **لسان العرب**، تحقيق: عبدالله علي الكبير وآخرون (دار المعارف، القاهرة، دون تاريخ)، ١/ ٢٨٦٤.

(١١) الرازي، زين الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر، ت ٦٦٦هـ، **مختار الصحاح** (مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م)، ص١٧٧.

الواضح أن نشأة مصطلح الأعراب كانت لأجل التفريق بينه وبين لفظ العرب الذين يسكنون المدن، ويؤيد هذا الأمر قول ابن الأثير: "جعل المهاجر ضد الأعرابي. والأعراب: ساكنو البادية من العرب الذين لا يقيمون في الأمصار ولا يدخلونها إلا لحاجة. والعرب: اسم لهذا الجيل المعروف من الناس، ولا واحد له من لفظه، وسواء أقام بالبادية أو المدن، والنسب إليهما: أعرابي وعربي"(١٢).

والمصطلح عند الجاحظ قريب الصلة من ذلك لكنه لا يتناوله من حيث المعنى اللغوي، فهو حين يشير إلى مدلول كلمة الأعراب يقول: "والأعراب ناس إنما وضعوا بيوتهم وأبنيتهم وسط السباع والأحناش والهمج، فهم لا يعبرون إلا بها، ولا يعرفون سواها"(١٣). والكلمة تعني عند الجاحظ ارتباطها بالموضع من جهة أنهم مجموعات منزوية عن البشر تعيش حياة الاستقرار أو الارتحال في مساكن ترتادها الحيوانات الضارية. وهو بذلك يضع تعريف الأعراب ضمن إطار المجتمع محتفظاً لهم بخصوصيتهم الاجتماعية مع تسليمه بغرابتها وإلفهم لها.

---

(١٢) ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد، ت٦٠٦هـ، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي (المكتبة العلمية، بيروت، ط١، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ٤٣١/٣.

(١٣) **الحيوان** ١٣٧/٢. والهمج هو ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والحمير. ينظر: الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، ت٨١٧هـ، **القاموس المحيط** (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ص٢٦٩. مادة: همج.

والمصطلح لدى الجاحظ واضح الدلالة، إذ يشير إلى أن المقصود بالأعراب هم سكان البادية على وجه الخصوص، والنص على ذلك تتضمنه كثير من كتاباته، نحو قوله: "قيل لأعرابي: ما أصبركم على البدو؟"(١٤)، وقوله: "قال أعرابي من بني أسد: أقبلت من البادية..."(١٥) كما يرد ذلك على سبيل العموم في استخدامه للفظ العرب، حين يقول على وجه التفصيل: "... ثم اعلم بعد ذلك أن جميع خطب العرب، من أهل المدر والوبر، والبدو والحضر، ... "(١٦). وهو ما يشير أيضًا إلى أن الجاحظ استخدم لفظين آخرين للدلالة على الأعراب هما: أهل الوبر، والبدو، كما استخدم في غير هذا الموضع لفظًا ثالثًا هو: الفدادين(١٧)، ولم يكن يمنعه في بعض الأحيان من دمج تلك الألقاب بعضها مع بعض بقصد زيادة التعريف، وهو ما يشير إلى أن الجاحظ كان يعتمد تقسيمًا متنوعًا

(١٤) **رسائل الجاحظ**، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون (دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م) **رسالة في الحنين إلى الأوطان**، ٢/ ٣٩٣.

(١٥) المصدر السابق، ٢/ ٣٩٣.

(١٦) **البيان والتبيين**، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون (دار الجيل، بيروت، د. ط، د. ت)، ٢/ ٧. وأهل المدر والوبر: المدر جمع مدرة، وهي الأبنية التي يتخذها الحضر سكنًا لهم، والوبر هو صوف الإبل: وخيام البدو تتخذ منها. ينظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ٦/ ٤١٥٩.

(١٧) **الحيوان**، ٤/٤٧٨. والفدادين: بتشديد الدال جمع فداد بدالين أولهما مشددة، وقد وردت لها عدة معان إلا أن أصوبها ما قيل من أنها من الفديد وهو الصوت الشديد، فهم الذين تعلو أصواتهم في إبلهم وخيلهم وحروثهم ونحو ذلك. ينظر: مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، ت٢٦١هـ، **صحيح مسلم بشرح النووي** (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، د.ت)، ٢/ ٣٤.

للأعراب كقوله: "بدويًا أعرابيًا"[١٨]، وقوله: "أعرابيًا وبريًا"[١٩]، وهو تقسيم ينم عن توصيف دقيق لحال الأعراب، إذ من الواضح أن التقسيم الأول مقصود به أولئك الذين يسكنون في مناطق مستقرة، أما التقسيم الآخر فيظهر من يسكن في الخيام المتنقلة المصنوعة من وبر الإبل. وتبعًا لذلك فالمصطلح عند الجاحظ يتسع ليشمل أولئك القاطنين بالبادية وإن اختلفت طرق معيشتهم ونمط حياتهم[٢٠]، وهو في سياق هذه الظاهرة يقر بأن الاختلاف ظاهر في العرب جميعًا؛ لأنهم استووا في التربة واللغة والهمة وفي الأنفة والحمية، وفي الأخلاق والسجية، فسبكوا سبكاً واحدًا، وأفرغوا إفراغاً واحدًا[٢١].

والحق أن الجاحظ يعد الأعراب مكونًا مهمًا من مكونات المجتمع المسلم، وجزءًا أصيلاً فيه، وقد استقرت هذه النظرة لديه حين عدّهم كذلك من حيث كونهم أصل العرب ومادتهم التي خرجوا منها، وهو ما تشير إليه عبارته: "وقد رأينا العرب وكانوا أعرابًا.."[٢٢]. كما أن مما يؤكد هذا الاتجاه عند الجاحظ حرصه على الربط بين العرب والأعراب في عدد من المواضع من خلال تتبعه لما يقال في ذلك، وإن كان

---

(١٨) **البيان والتبيين**، ١/١٤٤.

(١٩) **الحيوان**، ٤/٤٧٨.

(٢٠) ومما يدل على هذا الفهم لدى الجاحظ استخدامه المصطلح نفسه مع من شابه الأعراب في سكناهم ومعيشتهم كالترك مثلاً. انظر: **الرسائل، رسالة مناقب الترك**، ١/٧٠-٧١.

(٢١) المصدر السابق، ١/١١.

(٢٢) **الحيوان**، ٤/٧١.

على سبيل الزعم مثل قوله: "كل عربي وأعرابي كان يلقب نعامة"[٢٣]، أو على سبيل القطعفي بيان نظرة بعض الأمم والشعوب كالفرس للعرب والأعراب، مثل إفادته التي يقول فيها: "سمت الفرس بالفارسية العرب والأعراب (كهيان) والكه بالفارسية هو الجبل"[٢٤]. وهذا التصور في طبيعة العلاقة بين الطرفين يتطابق مع رأي لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في وصيته لأحد قادته، حين قال: "..... وأوصيه بالأعراب خيرًا فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام"[٢٥]. وتبدو هذه النظرة في الجمع بين العرب والأعراب عند الجاحظ مرتبطة بأصل اللغة التي ينتسب إليها الطرفان والتي قام على قاعدتها الإسلام، وليس على أصل الجنس[٢٦]، ومما يرجح ذلك أن الجاحظ كان يهتم كثيرًا بأحوال الموالي الذين اندمجوا مع الأعراب وأتقنوا اللغة العربية ففاقوا بذلك نظراءهم[٢٧]. كما

(٢٣) المصدر السابق، ٤/٤١٢.

(٢٤) المصدر السابق، ٥/٦٩.

(٢٥) البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل، ت٢٥٦هـ، **الصحيح** (عالم الكتب، بيروت، ط٥، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م) ٥/٨٦.

(٢٦) قد يؤيد ذلك أن القرآن خصص الكلمة وجعلها علمًا تشمل كل العرب، فقال سبحانه: "﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: ٤٤]. كما يؤيد ذلك قول ابن خلدون: "فالبدو أصل المدن والحضر، وسابق عليهما لأن أول مطالب الإنسان الضروري، ولا ينتهي إلى الكمال والترف إلا إذا كان الضروري حاصلاً فخشونة البادية قبل رقة الحضارة". ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد، ت٨٠٨هـ، **العبر** (دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، ط١، د.ت) ١/٢١٤.

(٢٧) **الرسائل، رسالة فخر السودان على البيضان**، ١/١٩٨.

يرجح ذلك شدة تعلق الجاحظ باللغة وامتداحه الأعراب من جهتها، وذلك حين يقول: "ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا أنفع ولا آنق ولا ألذّ في الأسماع، ولا أشد اتصالاً بالعقول السليمة، ولا أفتق للسان، ولا أجود تقويمًا للبيان، من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء[٢٨]. على أن المثير في اهتمام الجاحظ بالأعراب هو اتصاله بالصراع الدائر رحاه في العصر العباسي مع الشعوبية[٢٩]، هذا الصراع الذي يبدو أنه كان سياسيًا، كان يعكس مواقف قوى لها مطامعها ومصالحها، ولم يكن الجاحظ بمنأى عن ذلك حيث رأى في عنصر الأعراب أداة تؤكد تفوق العرب وتميزهم على غيرهم من الأجناس في البيان والفصاحة، وكان مما قال في هذا الشأن: "... وأخرى: أنك متى أخذت بيد الشعوبي فأدخلته بلاد الأعراب الخلص، ومعدن الفصاحة التامة، ووقفته على شاعر مفلق، أو خطيب مصقع، علم أن الذي قلت هو الحق، وأبصر الشاهد عيانًا. فهذا فرق ما بيننا وبينهم"[٣٠].

ومن الحق القول إن هذه النظرة التي عبر عنها الجاحظ فيما سبق حوت حسًا يعكس الواقعية العقلانية في دراسة

---

(٢٨) **البيان والتبيين**، ١٤٥/١.

(٢٩) الشعوبية: نسبة إلى "شعوب" ومفردها "شعب" وهي كلمة تطلق غالبًا على العجم الذين تعصبوا على العرب واحتقروهم. ينظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ٢٢٦٨/٤-٢٢٧٢ مادة شعب، المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، ت٨٤٥هـ، **كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم**، تحقيق: د.حسين مؤنس (دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤م)، ص١١١.

(٣٠) **البيان والتبيين**، ٢٩/٣.

التاريخ واستقراء حوادثه، فهو في رؤيته للأعراب يقدم تصورًا يحظى بقدر كبير من التقدير وبُعد النظر، حيث لا تنفصل حياة الأعراب عن مجمل تاريخ العرب بل ترتبط به ارتباطًا وثيقًا وهو ما يكسب تلك الحياة قدرها ويفرض على الباحث مكانتها، الأمر الذي يسهم في تناول النصوص التاريخية بتفصيلاتها الدقيقة لتتم معالجتها في سياق الظاهرة الكاملة لمكانة الأعراب الحقيقية في المجتمع الإسلامي. وهكذا يطرح الجاحظ شخصية الأعرابي في زمانه من ناحية اعتبارية أصل العرب وعلاقتهم المشتركة باللغة، ليقدم من خلال ذلك التصور رؤيةً تحتفل باللغة لكنها لا تهمل واقع منسوبيها أو تجاملهم، فهي تارة في معرض المدح وأخرى في معرض القدح، والجميل في ذلك كله استخدام التعليل ما أمكن دون نسبة الفعل للجنس.

الملامح الشكلية لشخصية الأعراب:

الذي يظهر من مصنفات الجاحظ أن الأثر العام لبيئة الأعراب قد أثر كثيرًا في تناوله لتلك الشخصية، فالصورة الشكلية التي يعبر عنها الجاحظ لا تعطي انطباعاً متوازنًا عن التفاوت بين الأعراب بصفتهم أفرادًا مختلفين في طبيعة الخِلقة، وهو إذ يقدم لتلك الصورة ليستوحي نماذج لأفراد انتقوا بدقة دون غيرهم للإيحاء بصورة لا تنفك عن التعبير بأثر تلك الأوضاع في السمات العامة لشخصية الأعراب الشكلية حيث قدم الجاحظ وصفًا لبعض الأعراب لا يخلو من بعض مؤثرات تلك الأوضاع بقسوتها وشظف العيش فيها،

إذ تتكرر الإشارة إلى دمامة الوجه بوصفها عنصرًا مشتركًا بين عدد من الأعراب في مواضع لها خصوصياتها المشتركة[٣١]، ليربط بين تلك الصفة وقلة ذات اليد[٣٢]، وعدّ ذلك في بعضها حالةً من الابتلاء[٣٣]. والجاحظ لا يكتفي بذلك دون أن يعطي له تفسيرًا طبيعيًا من البيئة التي يعتقد أن لها تأثيرًا كبيرًا في الإنسان من حيث أثر الهواء في تكوين الخلقة، حين يقول: "لا ننكر أن يفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم.. وقد رأينا العرب وكانوا أعرابًا حين نزلوا خراسان كيف انسلخوا من جميع تلك المعاني"[٣٤]. ويمضي ليؤكد عبر إحدى مشاهداته ما أصاب أبناء الأعراب والأعرابيات في مدن خراسان من تغيرات أصبحوا بسببها علوجًا في المنطقة[٣٥].

---

(٣١) **البيان والتبيين**، ١/٢٣٦-٢٣٧. أدرك الأعراب أن الدمامة كانت سببًا في عزوف الآخرين عنهم. ينظر: القيرواني، أبو إسحاق، إبراهيم بن علي الحصري، ت٤٥٣هـ، **زهر الآداب وثمر الألباب**، شرح: د. صلاح الدين الهواري (المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٩م) ٤/٢٥.

(٣٢) **البيان والتبيين**، ١/٢٣٦-٢٣٧.

(٣٣) الجاحظ، **البرصان والعرجان والعميان والحولان**، تحقيق وشرح: عبدالسلام محمد هارون (دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م) ص٤٤.

(٣٤) **الحيوان**، ١/٧١. تتفق ملحوظات المسعودي مع الجاحظ في تأثيرات الهواء في خلقة البشر، ويورد في ذلك أمثلة تتعلق بالترك والمصريين. ينظر: المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، ت ٣٤٦هـ، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد (دار الفكر، بيروت، ط٥، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م) ٢/٢٣١.

(٣٥) **الرسائل، رسالة فخر السودان على البيضان**، ١/ ٢٢٠. والعلوج: جمع مفردها (علج) وهو الواحد من كفار العجم. ينظر: الرازي، **مختار الصحاح**، ص١٨٨.

ويبدو أن ملاحظة الجاحظ تلك التغيرات لا تعني المظهر الخارجي فقط بل تمس إلى جانب ذلك الأثر الذي تركته في الطباع واللسان العربي، وهو ما يمكن أن يستشف من استخدام لفظ العلوج. لكن الجاحظ وهو في مجال المقارنة لأثر البيئة بين الأجناس يقدم تصورًا أوسع نظرًا في لون البشرة وتأثير ذلك في الأعراب، وذلك في قوله: "إن الله تعالى لم يجعلهم -أي السودان- سودًا تشويهًا بخلقنا ولكن البلد فعل ذلك. والحجة في ذلك أن في العرب قبائل سودًا كبني سليم بن منصور، وكل من نزل الحرة من غير بني سليم كلهم سود .... ولقد بلغ من أمر تلك الحرة أن ظباءها ونعامها وهوامها وذبابها وثعالبها وشاءها وحميرها وخيلها وطيرها كلها سود"(٣٦)!!

وثمة ما يوجب القول إن الجاحظ وهو يلحظ تلك التأثيرات في الأعراب يسجل ملاحظاته في انتشار البرص

(٣٦) **الرسائل، رسالة فخر السودان على البيضان**، ٢١٩/١. وقد يبدو هذا الخبر مستغربًا، لكنّ مصدرًا آخرَ يقول: "حرة بني سليم يضرب بها المثل في السواد وهي إحدى العجائب لأنها سوداء وأهلها بنو سليم كلهم سود ومن نزلها من غير سليم أسود". ويضيف إلى ذلك نصًا منسوبًا إلى الجاحظ ولم يرد بعضه في المطبوع حاليًا من كتاباته، وهو قوله: "وقال الجاحظ: وإنهم ليتخذون المماليك للرعي والسقي والمهنة والخدمة من الروميين والصقالبة مع نسائهم، فما يتوالدون ثلاث أبطن حتى تقلبهم الحرة إلى ألوان بني سليم". ومع ذلك فمن الواضح أن المصدر اعتمد نقل الخبر عن الجاحظ دون تمحيص. ينظر: الثعالبي، أبو منصور محمد بن إسماعيل النيسابوري، ت٤٢٩هـ، **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م) ص١٠٦.

في البادية، وبخاصة بين أهل الشرف والنباهة منهم، ومع أنه لا يرى ذلك مختصًا بالعرب وحدهم، فإن بواعثه التي يذكرها تكاد تكون محصورة بينهم!! حيث يشير إلى مكان اللبن وكل ما يجيء من اللبن، كما يشير أيضًا إلى الحرارة التي تقذف بالبلغم من أجواف البدو فتعمل أثرها في جلودهم(٣٧). ومع أن البرص له آثاره على الوجه خاصة، فإن الجاحظ ينقل عن الأعراب عدهم إياه زيادة في الجمال ودليلاً على المجد(٣٨). ويبدو أن هذا التعليل يصب في إطار ما يراه الجاحظ من طبيعة الأعرابي التي لا تجد ما يدعو إلى الشعور بالقذارة أو التحسس من أي عيب خلقي، طالما أن ذلك لا يمنعه من سؤدد أو ينقصه من تدبير(٣٩).

ولعل اتجاه الجاحظ العقلي هو الذي أكسبه دقة الملاحظة والميل إلى حب التوصيف مع التعليل ما أمكنه ذلك، فطفق يعطي مزيدًا من الرسم لملامح الأعراب وما تتضمنه من علامات قد تكون فارقة بعض الشيء عن غيرهم، ومن ذلك ما يلحظه في حق أحدهم من طبيعة الأسنان وتراكيبها المتغايرة(٤٠)، وذلك في صورة أقرب ما تعزى إلى حالة من الإهمال وعدم الاعتناء بالنظافة الشخصية، وهو أمر قد يكون مفهومًا في بيئة تفتقد مقومات الحياة المتحضرة وتعيش على الحد الأدنى من الضرورات المعيشية. أما بقية

(٣٧) **البرصان والعرجان**، ص٨٢-٨٣.

(٣٨) المصدر السابق، ص٣٧.

(٣٩) المصدر السابق، ص٣٧.

(٤٠) **البيان والتبيين**، ٢٣٦/١.

الجسد، فالجاحظ يقدم وصفًا يظهر الأعرابي فيه "شختًا مهزولاً، ومقرقمًا ضئيلاً"(٤١)، كما أنه يبدو في عينه "ضعيفًا نحيفًا، صغير الجسم قليلاً مهزولاً"(٤٢)، وهي وإن كانت صفات تبعث على الرحمة والشفقة، فإن الأعرابي يرى فيها دليلاً على شرف ولادته وكرم أعراقه(٤٣)، بل يراها مبعثاً للفخر والإعجاب، وذلك في قول أحدهم: "أنا والله العربي، لا أرقع الجُربَان، ولا ألبس التُبَّان، ولا أحسن الرطانة، ولأنا أرسى من حجر، وما قرقمني إلا الكرم"(٤٤). أو حين ينقل عن رجل قال لغلام أعرابي: "مالي أراك ضعيفًا نحيفًا، وصغير الجسم قليلاً مهزولاً؟ قال: قرقمني العز"(٤٥).

وعلى الرغم مما يشير إليه الجاحظ من ملامح يعتريها النقص الجسدي نجده يصف الأعراب بصحة الأبدان وسلامة الحواس(٤٦)، ولا يضارعهم في قوة الجسد إلا الزنوج(٤٧)، كما

(٤١) **البرصان والعرجان**، ص٤٣. والشخت هو: النحيف الجسم لا من هزال. وأما المقرقم فهو: البطيء الشباب الذي لا يشب. ينظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ٤/ ٢٢١٠، ٥/ ٣٦٠٣.

(٤٢) المصدر السابق، ص٤٣.

(٤٣) المصدر السابق، ص٤٣.

(٤٤) **البيان والتبيين**، ٢/ ٩٧-٩٨. والجربان هو: مصدره من جرب وهو بثر يعلو أبدان الناس والإبل، والتبان هو: سروال صغير مقدار الشبر يستر العورة المغلظة فقط. ينظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ١/ ٥٨٢، ١/ ٤٢٠.

(٤٥) **البرصان والعرجان والعميان والحولان**، ص٤٣.

(٤٦) **البخلاء**، تقديم: محمد عفيف الزعبي (دار المطبوعات الحديثة، جدة، ط٣، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م) ص١٦٢.

(٤٧) **الرسائل، رسالة فخر السودان على البيضان**، ١/ ١٩٥.

أنهم يتميزون بطول الأعمار لولا ما يذكره من تزيدهم في ذلك[٤٨].

غير أن الجاحظ وهو يصف أشكال الأعراب لا يفوته تقديم تتمة لتلك الصورة تتجلى في ارتباطاتها المتعددة باللباس بوصفه جزءًا مكملاً لشكلها الخارجي، ومع أن الجاحظ لم يكتب صراحةً عن المادة التي تصنع منها تلك الملبوسات، فإن ذكره للخيمة المصنوعة من الصوف ووبر الجمل واستبعاده لجلود الماعز بسبب رقتها في هذا الموضع[٤٩]، كانت تشير إلى نوعية المادة التي ارتبطت بها حياة الأعراب، والتي أسهمت إلى حد كبير في تعدد أشكال ألبسة الأعراب وتنوعها، كمثل الشملة[٥٠] والعباءة[٥١] والكساء[٥٢]. وبالطبع كانت هناك أشياء أخرى مصاحبة للأعراب، غير أن أهم إشارات الجاحظ في هذا السياق كانت مرتبطة بالعمامة، التي ما كانت لتغيب عن مشهد الحياة اليومي، إذ لم يكونوا ينزعون العمامة من رؤوسهم أبدًا[٥٣]، وقد قيل لأعرابي في ذلك، فكان رده: "إن شيئًا فيه السمع والبصر لجدير أن يوقى من الحر والقر"[٥٤]. وإذا كانت العمامة

---

(٤٨) **الحيوان**، ١/١٥٧.

(٤٩) المصدر السابق، ٥/ ٤٦١.

(٥٠) **البيان والتبيين**، ١/١٧٤، ٣/٢٣٠-٢٣١، ٤/٩٨. والشملة: رداء يصنع من صوف أو شعر يؤتزر به. ينظر: ابن منظور، **لسان العرب** ٦/٢٣٢٩.

(٥١) المصدر السابق، ١/٢٣٦- ٢٣٧.

(٥٢) المصدر السابق، ١/١٧٤، ٣/٢٣٠-٢٣١، ٤/٩٨.

(٥٣) **البيان والتبيين**، ١/ ٢٣٦-٢٣٧.

(٥٤) المصدر السابق، ١/١٧٣.

وسيلة ملائمة لمواجهة تبدلات الطبيعة، فإن رؤية الأعراب لها جعلتها تتجلى في كونها موضع التاج على الرأس[٥٥]، الأمر الذي يطابق قولاً منسوبًا لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "العمائم تيجان العرب"[٥٦]. وبالطبع فإنه لا يمكن عدّ لبس العمامة ظاهرةً خاصةً بالأعراب فقد شاركهم في ذلك كثير من الناس، وذلك ضمن سياق مهن وطوائف تفرد كل منهم بعمة خاصة به. يقول الجاحظ: "وللخلفاء عمة، وللفقهاء عمة، وللبقالين عمة، وللأعراب عمة، وللصوص عمة، وللأبناء عمة، وللروم والنصارى عمة"[٥٧]. وهو ما يدل على دقة تنظيم المجتمع وتفاوت جماعاته في اللباس، ومع أن كتابات الجاحظ لا تتضمن تفصيلات دقيقة لعمة الأعراب،

(٥٥) **البخلاء**، ص٣١٣.

(٥٦) **البيان والتبيين**، ٣/ ١٠٠. ولهذا القول أصل في حديث: "العمائم تيجان العرب، والاحتباء حيطانها، وجلوس المؤمن في المسجد رباطه". والحديث منكر. ينظر: الألباني، أبو عبدالرحمن محمد ناصر الدين، ت١٤٢٠هـ، **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة** (دار المعارف. الرياض، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م) ٩٦/٤ (ح ١٥٩٣).

(٥٧) **البيان والتبيين**، ٣/ ١١٤. والتفاوت في العمائم لا يقتصر على الشكل فقط بل يشمل إلى جوار ذلك اللون. ينظر: التيمي، أبو عبيدة معمر بن المثنى، ت ٢٠٩ هـ، **الديباج**، تحقيق: د. عبدالله بن سليمان الجريوع، د. عبدالرحمن بن سليمان العثيمين (مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م) ص١٣٠، ابن قتيبة الدينوري، عبدالله بن مسلم، ت٢٧٦هـ، **عيون الأخبار**، تحقيق: منذر محمد سعيد أبو شعر (المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م) ٣٢٩/١، الصابئ، أبو الحسين هلال بن المحسن، ت٤٤٨هـ، **رسوم دار الخلافة**، تحقيق: د. ميخائيل عواد (دار الرائد العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦) ص٩٠.

فإنه ذكر في موضع آخر بعض ما يفيد في ذلك، نحو ميل الأعرابي لكثرة الطي ومضاعفة الأثناء: "ولربما اعتم باثنتين، ولربما كانت على قلنسوة حدرية"(٥٨). ويبدو من هذا الوصف أن عمة الأعراب كانت كبيرة، ولربما يؤيد ذلك ما أثبته الجاحظ من أن شاعرًا أراد قول الشعر أمام أحد الخلفاء فنهاه حتى يلبس عمامة عظيمة الكور وخفان دمالقان(٥٩). ثم بكر عليه في الغد وقد تزيا بزي الأعراب(٦٠).

كانت تلك أهم الملامح الشكلية للأعراب في كتابات الجاحظ، وهي في المجمل العام مستوحاة من المشاهدات والأخبار المنقولة عنهم، غير أننا نعتقد أنه كان بوسع الجاحظ الإنصاف في تناوله لصفات الأعراب الشكلية، إذ لا يعقل أن يكون حال الأعراب واحدًا في مطلق الأحوال، لكنه اختار صورة أخرى مغايرة بدا أن عرضها على هذا النحو - حتى ولو سيقت لها العلل أو التمست لها الحيل - سيجعل من اليسير التنفير من رؤيتها والاستهانة بصورتها، وهو ما قد يلقي بظلال من الشك في موقفه من الأعراب، لكن ومع ذلك لا يمكن تجاهل طبيعة الجاحظ المرحة وطريقته الانتقائية في إثارة الدعابة

(٥٨) **البخلاء**، ص٣١٣-٣١٤. والقلنسوة: نوع من الملابس يوضع على الرأس. ينظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ٥/٣٧٢٠.

(٥٩) دمالقان: الدملق هو الأملس المستدير الشديد الاستدارة. ينظر: الزبيدي، محمد بن محمد، ت١٢٠٥هـ، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق: د. نواف الجراح (دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠١١م) ٤/١٧٨.

(٦٠) **البيان والتبيين**، ١/٩٥، وتتفق بعض المصادر مع الجاحظ في تميز الأعراب في هيئتهم. ينظر: الطبري، محمد بن جرير، ت٣١٠ هـ، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (دار المعارف، القاهرة، ط٤، د.ت) ٧/٥٤١.

والغرابة في آن واحد، حتى ولو كان ذلك متعلقًا بشخصه ووجهه تحديدًا!!"[٦١] والصورة الماثلة في شأن الأعراب تتجلى بوضوح عند نقله خبرًا في وصف رجل لأعرابي: "لم أسمع بشيطان أقبح منه وجهًا، ولا بإنسان أحسَن منه عقلاً"[٦٢].

طبائع الأعراب وأخلاقهم:

إن تلك الصورة التي حدد الجاحظ أهم معالمها الجسدية لم تغب عنها ارتباطاتها الخلقية، فالأعراب "أجلاف جفاة"[٦٣]. وهو الوصف الذي يعتقد المبرد أنه كان بسبب استخدامهم ألفاظًا وكلمات فيها جفاء عند المسألة والطلب[٦٤]، الأمر الذي يعكس صورة البيئة التي يعيشون فيها. وأشدهم وحشية في ذلك البدوي الأعرابي الذي لا يفهمه إلا الوحشي من الناس[٦٥]، ويصفه الجاحظ في موضع آخر بالبدوي الصعب لما عرف عنه من الكبر، وهو خلق مألوف في

(٦١) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ) **وفيات الأعيان**، تحقيق: د. إحسان عباس (دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م) ٣/ ٤٧٠، الوطواط، أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى الكتبي، ت٧١٨هـ، **غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة** (مطبعة بولاق، القاهرة، ١٢٨٤هـ) ص١٨٤.

(٦٢) **الحيوان**، ٦/ ٢٣٩.

(٦٣) **الرسائل، رسالة مفاخرة الجواري والغلمان**، ٢/ ١٠٥.

(٦٤) المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، **الكامل في الأدب**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (دار الفكر العربي، القاهرة، د. ط، د. ت) ٣/ ٢١٦.

(٦٥) **البيان والتبيين**، ١/ ١٤٤. بالإشارة إلى عبارة الوحشي من الناس، يرى ابن خلدون أن خلق التوحش جعل العرب "أصعب الأمم انقيادًا بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة ولذلك فقلما تجتمع أهواؤهم". ينظر: **العبر**، ١/ ٢٦٦.

طباعهم[٦٦]، إلا أنه عند عظماء الأعراب أوجد، وهو لهم أسرع وذلك "لجفائهم وبُعدهم من الجماعة، ولقلة مخالطتهم لأهل العفة والرعَة، والأدب والصنعة"[٦٧]. وقد وجدت خصلة الجفاء اهتمامًا واسعًا في مصنفات الجاحظ فيما يشير إلى أنها كانت ظاهرة لافتة للنظر في المجتمع العربي آنذاك، تفرع عنها كثير من الشرور، والحق أن الجاحظ لم يكن ليخفي مشاعره حال الحديث عن ذلك الأمر، وقد يأتي على ذكر الأعراب من باب التشبيه بينهم وبين من يستوي معهم في تلك الصفة، من مثل قوله: "وضرب من الناس همج هامج، ورعاع منتشر، لا نظام لهم، ولا اختبار عندهم، أعراب أجلاف، وأشباه الأعراب، يفترقون (حيث يفترقون، ويجتمعون حيث يجتمعون)؛ لا تدفع صولتهم إذا هاجوا، ولا يؤمن هيجانهم إذا سكنوا. إن أخصبوا طغوا في البلاد، وإن أجدبوا آثروا العناد. ثم هم موكولون ببغض القادة، وأهل الثراء والنعمة، يتمنون النكبة، ويشمتون بالعثرة، ويسرقون بالجولة، ويترقبون الدائرة"[٦٨]. على أن الجاحظ

(٦٦) **الرسائل، رسالة في النبل والتنبل وذم الكبر**، ١٧٦/٤.

(٦٧) المصدر السابق، ١٧٥/٤. والرعة: هم أهل المحافظة والبعد عن فعل القبيح. ينظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ١٦٧٦/٣.

(٦٨) **الرسائل، مقالة الزيدية والرافضة**، ٣١٤/٤، من الغريب حقًا أن الجاحظ يعطي توصيفات دون الإشارة إلى وقائع قد توثق شيئًا من رأيه في سلوك بعض الأعراب العدائي مع السلطة والمجتمع! ينظر: الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٦/٥، ١٤، ٥٥، ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر، ت٧٧٤هـ، **البداية والنهاية** تحقيق: د. أحمد أبو ملحم وآخرين (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ٣١٦/٦-٣١٩.

وهو يرصد ما يراه من أحوال الأعراب كان يعطي وصفًا شديد القسوة فيحقهم، وقد يتجاوزه أحيانًا ليصم به غيرهم لمجرد تقبلهم إياهم. ففي ذكره بعض ما يراه من سلبيات يقول: "الأعرابي شر من الحاضر: سائل جبار، وثابة ملاق، إن مدح كذب، وإن هجا كذب، وإن سب كذب، وإن طمع كذب، لا يقربه إلا نَطِف[٦٩] أو أحمق، ولا يعطيه إلا من يحبه، ولا يحبه إلا من هو في طباعه"[٧٠] والتعميم هنا بمثل هذه العبارات القاسية، وإن كان بصيغة المفرد لا يستقيم مع عدد من النصوص التي نقلها الجاحظ عن بعض محاسن الأعراب، والظن أنه في نظرته تلك كان كغيره من البشر أسيرًا لبعض المواقف الشخصية. بيد أن من الضروري القول إن الجاحظ كان يجد ما يشير إلى شيء من آرائه تلك، فيورده على سبيل الاحتجاج والدلالة، ومن ذلك سخط قتيبة بن مسلم الباهلي على الأعراب وتبرمه منهم إلى حد جعله يقول فيهم: "الأعراب وما الأعراب، فلعنة الله على

(٦٩) النطف: تعني العيب، يقال: هم أهل الريب والنطف. ينظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ٦/ ٤٤٦١.

(٧٠) **البخلاء**، ص٢٦١-٢٦٢. وضمن سياق تلك السلبيات يوصف الأعرابي بالحقد لكونه لا يغفر لمن أساء إليه حتى يأخذ بثأره "قيل لأعرابي: أيسرك أن تدخل الجنة ولا تسيء لمن أساء إليك؟ فقال: بل يسرني أن أدرك الثأر وأدخل النار". ينظر: النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب، ت٧٣٣هـ، **نهاية الأرب في فنون الأدب** (دار الكتب المصرية، القاهرة، ط١، ١٣٤٤هـ/١٩٢٥م) ٦/ ٦٧. ومع أنه لا يستبعد حدوث مثل هذا في ظل الجهل والسذاجة، فإن مثل هذه الأخبار قد يكون دافعها التسلية والرغبة في الامتهان.

الأعراب"[٧١]. كما يصب في الاتجاه نفسه قول الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز: "ما قوم أشبه بالسلف من الأعراب، لولا جفاء فيهم"[٧٢].

ولا يخلو من الأهمية التنويه بأن الجفاء وحده لم يكن أبرز خصلة في خلق الأعراب، إذ من الواضح أن بعض معالم الجهل التي كانت تتخذ وقائعها للتندر والفكاهة من قبل شخصية ناقدة ومرحة كالجاحظ، كانت كثيرًا ما تلقى قبولاً يخفف من مرارة التعامل مع الأعراب[٧٣] وقد يبلغ من شدة جهلهم أن يصبح ذلك مثار تعجب الخلفاء والملوك[٧٤]، غير أن الجهل لم يكن نابعًا من نقص في عقولهم بقدر ما كان قصورًا في معرفتهم، موازنةً بمعارف من حولهم من أهل المدن، وروايات الجاحظ في هذا الباب متنوعة لكنها تعطي المدلول نفسه، فإحدى تلك الروايات التي تثير عجب الجاحظ من جهل الأعراب تقوم على ريبة أحد الأعراب في رجل قطعت يده اليسرى، مع أن اليمنى هي موضع الحد الشرعي في السرقة[٧٥]! ورواية أخرى تتحدث عن أعرابي اشتد عليه البرد، فلما رأى

(٧١) **البيان والتبيين**، ١٣٣/٢، ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد، ت٦٣٠هـ، **الكامل في التاريخ** (دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ١٣٩/٤.

(٧٢) المصدر السابق، ١٦٤/٢.

(٧٣) يشير الإمام النووي إلى ارتباط خصلتي الجهل والجفاء بسلوك الأعراب ويعزو ذلك لما هم فيه من حياة البداوة، مستدلاً بما ورد في الحديث: (من بدا جفا). ينظر: مسلم، **صحيح مسلم بشرح النووي**، ١٦٩/١.

(٧٤) **الحيوان**، ١٩٤/٧.

(٧٥) **البرصان والعرجان**، ص٣٨٣.

نارًا اقترب منها وهو يدعو الله ألا يحرمه إياها في الدنيا والآخرة(٧٦). لكن هذا الجهل بمسائل الشريعة لا يعني عدم الاهتمام بها، إذ ثمة معطيات ينقلها الجاحظ تصف تدين الأعراب وترسم صورة مغايرة لما عهد عنهم من النفاق والكفر إلا من آمن منهم بالله واليوم الآخر(٧٧). وتظهر إحدى تلك المعطيات خبر أعرابي نظر إلى مال له كثير من الماشية وغيرها، فقال: "ينعة، ولكل ينعة استحشاف، فباع ما هناك من ماله، ثم يمم ثغرًا من ثغور المسلمين، فلم يزل به حتى أتاه الموت"(٧٨). ومن بين معطيات التدين تلك بطبيعة الحال تشبههم بالسلف السابق الذكر. وعلى هذا الأساس فإن مقولة: "إذا أردت أن تتعلم الدعاء؛ فاسمع دعاء الأعراب"(٧٩) تظهر بوضوح علاقتهم بالتدين، وما ينقله الجاحظ عن الأعراب في ذلك أكثر من أن يستوفى، لكن أبرز ما يقيد في

(٧٦) **الحيوان**، ٤/٤٨٥.

(٧٧) ذكر القرآن الكريم الأعراب في مواضع متعددة، من بينها قول الله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٧ - ٩٩]. وقد عقب الإمام الطبري على ذلك بقوله: "الأعراب أشد جحودًا لتوحيد الله، وأشد نفاقًا من أهل الحضر في القرى والأمصار. وإنما وصفهم -جل ثناؤه- بذلك لجفائهم، وقسوة قلوبهم، وقلة مشاهدتهم لأهل الخير، فهم لذلك أقسى قلوبًا، وأقل علمًا بحقوق الله". ينظر: الطبري، **جامع البيان في تفسير القرآن** (دار المعرفة، بيروت، ط٤، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) ١١/٤.

(٧٨) **البيان والتبيين**، ١/٢٦٢.

(٧٩) المصدر السابق، ٢/١٦٤.

هذا الاتجاه من أقوال: "اللهم لا تنزلني منزل سوء، فأكون امرأ سوء"[٨٠]، "اللهم إني أعوذ بك من صديق يطري، وجليس يغري، وعدو يسري"[٨١]، "أعوذ بك من سقم وعدواه، وذي رحم ودعواه، ومن فاجر وجدواه، ومن عمل لا ترضاه"[٨٢]، "اللهم أعني على الموت وكربته، وعلى القبر وغمته، وعلى الميزان وخفته، وعلى الصراط وزلته، وعلى يوم القيامة وروعته"[٨٣]، "اللهم إنك حبست عنا قطر السماء، فذاب الشحم، وذهب اللحم، ورق العظم، فارحم أنين الحانة، اللهم ارحم تحيرها في مراتعها، وأنينها في مرابضها"[٨٤]. وإذا ما أتيح لنا الاعتقاد بأن للدعاء دلالات لا تخلو من مضامين أخلاقية تعبر عن طبيعة متدينة، فإن نفوس الأعراب كانت تميل على الأغلب إلى البساطة وعدم التكلف في القيام بالأمور الشرعية[٨٥]. والجاحظ يلحظ ذلك من خلال حال أعرابي ذكر عنده رجل بشدة الاجتهاد، وطول الصلاة، وكثرة الصوم، فما كان منه إلا أن قال مزريًا عليه: "هذا رجل سوء، أو ما يظن هذا أن الله يرحمه حتى يعذب نفسه"[٨٦]. وبمثل هذا عبر أحد الأعراب تعبيرًا دقيقًا عن جوهر تلك النفسية

(٨٠) المصدر السابق، ٣/٢٦٩.

(٨١) المصدر السابق، ٣/. ٢٦٩

(٨٢) المصدر السابق، ٣/ ٢٧٠.

(٨٣) المصدر السابق، ٣/ ٢٧٠-٢٧١.

(٨٤) المصدر السابق، ٣/٢٧٤.

(٨٥) تبدو حادثة نفي البادية لأعرابي إلى الحاضرة - بسبب آرائه المنحرفة - مثلاً يمكن الاستدلال به على سلامة التدين وبعده عن التنطع. ينظر: الجاحظ، **الحيوان**، ٦/ ٨٠.

(٨٦) **البيان والتبيين**، ٣/ ١٥٤.

وطبيعة سماتها الخلقية، وذلك عندما قال للحسن البصري[٨٧]: "علمني دينًا وَسُوطًا، لا ذاهبًا شطوطًا، ولا هابطًا هبوطًا، فقال له الحسن: لئن قلت ذاك إن خير الأمور أوساطها"[٨٨]. بيد أنه ينبغي عدم المبالغة في إضفاء صفة الوسطية على الأعراب، فمن المهم في هذا السياق النظر إلى جوانب أخرى في شخصيتهم ترجح الاعتقاد بأن ذلك لم يكن سوى رغبة في التخفف من كثرة الأعباء جريًا على ما ألفوه في حياتهم، ولذا لم يكن من الغريب أن يوصف الأعرابي بقلة الفقه[٨٩]. وبسبب ذلك وكما تدل كتابات الجاحظ فإنه لم يكن من العسير على الغير خداع الأعراب وإغواؤهم، كما هو الحال في تصديقهم ما ادعاه مسيلمة الحنفي من النبوة وتبرير الجاحظ بأنهم كانوا أعرابًا[٩٠]، وليس مما يدعو إلى

(٨٧) الحسن البصري: هو الحسن بن أبي الحسن يسار، تابعي جليل، كان سيد زمانه علمًا وعملاً، ولد في المدينة لسنتين بقيتا من خلافة الفاروق عمر رضي الله عنه، وكانت أمه مولاة لأم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها. توفي في البصرة سنة ١١٠هـ. ينظر: ابن سعد، محمد بن منيع، ت٢٣٠هـ، **الطبقات الكبرى** (دار صادر، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م) ١٥٦/٧-١٧٨، الذهبي، شمس الدين محمد بن عثمان، ت٧٤٨هـ، **سير أعلام النبلاء** (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٦، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م) ٥٦٣/٤-٥٨٨.

(٨٨) **البيان والتبيين**، ٢٥٥/١.

(٨٩) المصدر السابق، ١٣٦/٣.

(٩٠) **الحيوان**، ٣٦٩/٤-٣٧١. ولعل الجاحظ أراد من قوله كانوا أعرابًا بأنهم لم يكونوا أصحاب خصومات ولا نظر في الفاضل والمفضول. ينظر: الجاحظ، **كتاب العثمانية**، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون (دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م) ص١٢٤-١٢٥، ١٢٧. وهو ما يؤكده ابن الأثير عن الأعراب بأنهم يمتازون بالوقوف "عند قبول=

الدهشة حينئذ أن يتصف الأعراب بالحذر والارتياب[٩١]، وهو مسلك رسخ لديهم خاصية التدقيق والنظر فيما حولهم حتى عرف بين الناس أن مجالسة الأعراب تعلِّم الفراسة[٩٢]. وعلاوة على ذلك فإن أخلاق أخرى للأعراب حظيت بنوع من التقدير البالغ لدى الجاحظ فقد عدهم "أشد خلق الله أنفة، وأفرط حمية، وأطلب بطائلة"[٩٣]. وخصهم بحسن الحديث[٩٤]، كما وصفهم بحب الفكاهة والظرافة[٩٥] وكان يرى من ظرفهم ما لا يجاريهم فيه أحد[٩٦]، وبلغ حدًا جعلهم فيه موضعًا لنوادره[٩٧]. ولئن كانت إشارة الجاحظ إلى صبيان الأعراب اقتضت أن يشهد لهم بسلامة الحس وصفاء الروح كما هو الحال عند أبناء الخلفاء والوزراء[٩٨]، فإن ذلك

= ظاهر الشريعة، واتباعها من غير تفتيش عن الشبه، وتنقير عن أقوال أهل الزيغ والأهواء". ينظر: ابن الأثير الجزري، **جامع الأصول في أحاديث الرسول**، تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط (دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ٢٩٣/١.

(٩١) **البيان والتبيين**، ١٦٩/٣.

(٩٢) **الحيوان**، ١٢٣/١.

(٩٣) **الرسائل، رسالة حجج النبوة**، ٢٧٥/٣.

(٩٤) جاء ذلك في معرض نفيه ما نسب لعبدالله بن الزبير رضي الله عنهما من قوله لأعراب قدموا عليه لنصرته: "إن سلاحكم رث، وحديثكم غث". ينظر: **البيان والتبيين**، ١٧٣/١. البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر،٢٧٩هـ، **أنساب الأشراف** (مطبعة المثنى، بغداد، د. ط، د. ت) ٣٦٠/٥.

(٩٥) **البيان والتبيين**، ٣١٩/٢، ٣٣٣-٣٣٤.

(٩٦) المصدر السابق، ٥١/٣.

(٩٧) **الحيوان**، ٤١٢/٤.

(٩٨) المصدر السابق، ٨٥/٤.

كان مبعثه كراهية الأعراب للكذب[٩٩] والظلم[١٠٠]. وكانت هذه الأخيرة إحدى أهم العلامات الفارقة في أخلاق الأعراب التي أحدثت نقلة إيجابية كبيرة في تصورهم لطبيعة العلاقة الطردية بين الإنسان والأشياء من حوله، وهو ما كان مطابقًا لطبيعة الإسلام وأخلاقه، بحيث دفعت أحدهم ليقول: "إنه ليقتل الحبارى هزلاً، ظلم الناس بعضهم لبعض"[١٠١]، فيما يقول آخر: "إذا كثرت الخطايا منع الله عز وجل در السحاب. وإنما تصيب الطير من الحب ومن الثمر على قدر المطر"[١٠٢]. والواقع أن هذا الحس المرهف بالشعور الإنساني النبيل كان يملك أداة التعبير عن نفسه كيفما شاء، وكان من المجدي لدى الجاحظ أن يعد ذلك إحدى الصفات الحاسمة للروابط الأعرابية التي حافظت على خصوصيتها من الذوبان، وذلك في مقابل أولئك الأعراب النازلين على طرق السابلة وبقرب مجامع الأسواق[١٠٣] حيث كان لطول إقامته في المدن أثره في نقصان تلك الخصوصية على نحو كان محسوبًا عند الجاحظ بدقة حين استخدم لفظ "القبح" تجاه التدني الذي وصلت إليه اللغة على أيديهم[١٠٤]. ومع التسليم بأن هؤلاء الأعراب كانوا يعانون كثيرًا لأجل الحفاظ

(٩٩) البيان والتبيين، ٢٤٨/١.

(١٠٠) المصدر السابق، ١٦١/٣، الحيوان، ٧٩/٦-٨٠.

(١٠١) البيان والتبيين، ١٤٦/١.

(١٠٢) المصدر السابق، ٤٤٤/٥.

(١٠٣) المصدر السابق، ١٤٦/١.

(١٠٤) المصدر السابق، ١٦٢/١-١٦٣.

على طباعهم، غير أن من المهم في هذا الشأن القول إنه حتى الأعراب في البادية كانوا يشعرون بتلك المعاناة مما يلاقونه من أجناس البشر وهو ما كان ينشأ عنه وضع بالغ الصعوبة لهم، حتى إن أحد أولئك الذين عاشوا وتطبعوا بطباع الأعراب كان يلقى الأكرة فلا يفهمهم ولا يفهمونه، فلما رأى من يسكن إليه قال: "لعن الله أرضًا ليس بها عرب"(١٠٥).

والحق أن ثمة ما يشير لدى الجاحظ إلى أن تلك الصعوبات لم تظهر إلا متأخرة في العصر العباسي(١٠٦)، إذ كان خلفاء بني أمية يعدون البادية في زمانهم محضنًا لأبنائهم يفتق ألسنتهم ويبعدهم عن الرطانة والركاكة(١٠٧)، ومن المعتقد أن هذا الحرص كان على الأغلب يدل في جانب آخر على سلامة الأعراب وبيئتهم مما يخدش الرجولة. لكن الجاحظ

(١٠٥) **الرسائل، رسالة في الحنين إلى الأوطان**، ٤٠٦/٢. كانت عزلة الأعراب في البادية مدعاة للحفاظ على سلامة اللغة، وهو ما عبر عنه ابن المقفع في قوله: "أي حكمة تكون أبلغ، أو أحسن، أو أغرب، أو أعجب من غلام بدوي لم ير ريفًا، ولم يشبع من طعام، يستوحش من الكلام، ويفزع من البشر، ويأوي إلى القفر واليرابيع والظباء، وقد خالط الغيلان، وأنس بالجان". القيرواني، **زهر الآداب وثمر الألباب**، ١٣٤/٢.

(١٠٦) ربما يؤكد هذا الاتجاه أن الجاحظ عند تحديه الشعوبية يبرز قوة اللغة العربية ومتانتها بذكر بلاد الأعراب الخلص بوصفها موضع الفصاحة التامة ومعدنها. ومن المعروف أن مصطلح الشعوبية لم ينشأ إلا في العصر العباسي. ينظر: **البيان والتبيين**، ٢٨/٣-٢٩.

(١٠٧) المصدر السابق، ٢٠٥/٢. وكان الشعراء كذلك يعرفون فضل الأعراب من جهة فصاحة اللسان ويحرصون على الاجتماع بهم للإفادة منهم. ينظر: **الحيوان**، ٢٣٩/٦، الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد، ت٣٥٦هـ، **الأغاني** (دار الفكر، بيروت، د. ط، د. ت) ٥١/٣.

وهو يرصد سلوك الأعراب الأخلاقي يلحظ بدقة الفارق بينهم تبعًا لأساليبهم المعيشية، فرعاة الإبل وأهل الوبر ينظرون بنوع من الازدراء والضعة لرعاة الغنم؛ لأنهم كانوا يرون النبل في الحلب قائمًا، حتى إنهم كانوا يتهددون الكاذب من بينهم بالقول: "إن كنت كاذبًا فحلبت قاعدًا"(١٠٨). ويبدو أن هذه الملاحظة لم تعن الكثير للجاحظ، فإعجابه بأهل الوبر قاده لتمجيدهم واحترامهم بدعوى استواء خصال الخير فيهم(١٠٩).

حياة الأعراب الاجتماعية:

إذا ما اعتمدنا رأي الجاحظ القائل بأن الأعراب هم أصل العرب(١١٠)، فإن ذلك سيعني أنهم هم النواة الاجتماعية الأولى التي تشكل منها المجتمع العربي، ومن ثم سيمثلون نمطًا اجتماعيًا له خصوصياته وفقًا لاستقرارهم جماعات(١١١) وهو ما سيعد أساسًا لتشكل المجتمعات على اختلافها. والجاحظ وهو يكتب عن الأعراب كان مدركًا لطبيعة المجتمعات الأعرابية وتركيبتها البنائية التي يصفها في أسوأ حالاتها بقوله: "... رعاع منتشر، لا نظام لهم، ولا اختبار عندهم ..."(١١٢) وهو ما يعكس حالة من الشتات والفوضى، تؤثر تأثيرًا جوهريًا في أوجه العلاقات الاجتماعية. ومع ذلك

(١٠٨) البيان والتبيين، ٢٤٨/١.

(١٠٩) الحيوان، ٢٤٦/٢.

(١١٠) المصدر السابق، ٧١/٤.

(١١١) من الملحوظ أن الجاحظ في تعريفه للأعراب يشير إلى مصطلح الجماعة في قوله: ناس. ينظر: الحيوان، ١٣٧/٢.

(١١٢) الرسائل، رسالة الزيدية والرافضة، ٣١٤/٤.

فالمعلومات المتناثرة التي وصلت إلينا من كتابات الجاحظ يكفي بعضها لمعرفة جوانب من حياة الأعراب الاجتماعية.

وربما تعد أولى الجوانب المهمة والغريبة حقًا في كتابات الجاحظ عن الأعراب إشارته على لسان الزنج في مخاصمتهم للعرب إلى عدهم أكفاء في النساء لمصاهرتهم الأعراب في البادية إبان عصر الجاهلية "فلما جاء عدل الإسلام رأيتم ذلك فاسدًا، وما بنا الرغبة عنكم. مع أن البادية منا ملأى ممن تزوج ورأس وساد ومنع الذمار، وكنفكم من العدو"(١١٣). والواقع أن مسألة التزاوج بين الطرفين لا تقرها الوقائع التاريخية ولا تسندها المصادر الإخبارية، ويبدو الجاحظ متفردًا في هذا السياق دون غيره، ولو عرف حقًا لاشتهر أمره ولما بقي طي الكتمان، غير أن الخبر يشير إلى عدم رضا الجاحظ عن انتقاص الأعراب للزنج، الأمر الذي قد يقود إلى الشك فيما يقال في أصله العربي وارتباط ذلك بالزنج(١١٤).

---

(١١٣) **الرسائل، رسالة فخر السودان على البيضان**، ١٩٧/١. من الثابت تاريخيًا وجود أبناء لزنجيات آباؤهم من العرب. ينظر: ابن حبيب البغدادي، أبو جعفر محمد، ت٢٤٥هـ، **المنمق في أخبار قريش**، تصحيح: خورشيد أحمد فارق (عالم الكتب، ط١، ١٩٨٥م) ص٤٠٠-٤٠١.

(١١٤) تضاربت الآراء في أصل الجاحظ بين أن يكون عربيًا من كنانة وبين أن يكون مولى متحدرًا من الزنج. ينظر: ابن منظور، **تاريخ دمشق**، تحقيق: إبراهيم صالح (دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م) ١٨٢/١٩، ياقوت الحموي، **معجم الأدباء**، ٧٤/١٦، ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ٢٤/٣. وتميل بعض الدراسات الحديثة إلى الاعتقاد بأن الجاحظ كان من الموالي. ينظر: بللا، شارل، **الجاحظ**، ترجمة: د .إبراهيم الكيلاني (دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م) ص٩٦، جبر، جميل، **الجاحظ في حياته وأدبه وفكره** (الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط١، ١٩٩٩) ص٢٢.

على أن وجود الزنج في البادية لم يكن قصرًا عليهم، فمن الأمم الأخرى من عايش الأعراب كالسند والروم[١١٥]. والذي يعنينا من تلك الإشارة هو أن الاختلاط بين الأعراب وغيرهم في البادية كان أمرًا متاحًا في حدود الحاجة، حيث ظلت الأسرة الأعرابية الركيزة الأساسية في بناء المجتمع الأعرابي، ولذا فالزواج لم يتطلب كثيرًا من العناء إذ كان يكفي أن يقدم الخاطب ما يملك من صداق، ولو كان ذلك جرادًا وضبانًا، وبعضهم يعترض على ذلك ويرى في القعب والقوس ما يكفي[١١٦]. ويحبون كثرة العيال ويطلبون الولد خاصة للتقوي بهم[١١٧]، وتظل حظوظ الإناث دون ذلك[١١٨]، ومع ذلك يهتم الأعراب بتربيتهم وتعليمهم ما ينفعهم في حياتهم[١١٩]، أما نساؤهم فيحرصن على بث الحماس في نفوس الأبناء للمشاركة والتفاعل مع مجتمعهم[١٢٠]. وبالرغم من حرص الأعراب على تماسك الأسرة[١٢١] نجد لديهم

(١١٥) **الحيوان**، ٣/ ٤٣٤، **الرسائل، رسالة فخر السودان على البيضان**، ١٩٨/١.

(١١٦) **الحيوان**، ٩٢/٦-٩٣. وقد يدخل في الصداق بعض الحيوانات كالتيوس والكلاب والإبل. ينظر: ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي، **العقد الفريد**، شرح: أحمد أمين، وآخرين (دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ٣/ ٤٧٠.

(١١٧) **البيان والتبيين**، ١٤٥/٣، ٧٧/٤، الضبي، المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم، ت١٧٨هـ، **أمثال العرب**، تحقيق: د. إحسان عباس (دار الرائد العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م) ص١٦٦.

(١١٨) **البيان والتبيين**، ١٨٦/١، ١٤٩/٣، ٤٧/٤، ٧٢-٧٣.

(١١٩) المصدر السابق، ٧٩/٢.

(١٢٠) **الحيوان**، ١٠٠/٢.

(١٢١) **البيان والتبيين**، ٩٥/٢.

الجرأة على طرح علاقاتهم الزوجية الخاصة أمام غيرهم دون أن يجدوا لذلك حرجًا[١٢٢]، لكن ذلك على وجه الحقيقة لم يكن قاصرًا على الرجال فقط، بل يضم إليه نساءَهم اللواتي لا يخفين صراحتهن في بعض الأحيان[١٢٣]. وفي مجتمع يبدي اهتمامًا بكثرة الولد تبدو الفحولة مسألة بالغة الأهمية لكلا الطرفين، وهو ما قد يدفع للتباهي بها من قبل الرجال أو الشكوى من نقصها من قبل النساء[١٢٤]. وكان الجاحظ يعرف هذا الطبع فيهم ويستخبرهم عنه بقصد إثارة الدعابة[١٢٥]. وبخلاف ذلك فإن علاقة الأعرابي بالمرأة تتميز في كثير من الأحيان بالحرص عليها، وقد يكون جانب من ذلك مرتبطًا بما ينسب إليها من الجمال، إذ كان الأعرابي "يشبِّهها بالحية، ويسميها شوهاء وجرباء"[١٢٦]، وذلك مخافة الحسد.

والصورة النمطية لبيئة الأعراب في البادية تكاد تكون واحدة، إذ تحكمها الظروف المشابهة نفسها التي يعبر عنها الجاحظ في معرض احتجاج إحدى شخصياته عليهم بقوله: "... إنما يسكنون القفار، وينفرون من الناس كنفور الوحش ..."[١٢٧].

---

(١٢٢) **الحيوان**، ٣/١١٠، ٧/١٦٠-١٦٣.

(١٢٣) **البيان والتبيين**، ٢/١١٧.

(١٢٤) وقد جرم الإسلام هذا السلوك وحرمه، ومن ذلك ما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها". ينظر: **صحيح مسلم بشرح النووي** ٨/١٠ كتاب النكاح باب ٢١ حديث ١٢٣.

(١٢٥) **الحيوان**، ٣/١١٠.

(١٢٦) **الرسائل، رسالة مفاخرة الجواري والغلمان**، ٢/١٠٥.

(١٢٧) المصدر السابق، ٢/١٠٥.

وتظهر كتابات الجاحظ في هذا الشأن طبيعة تلك البيئة من حيث كونها "بلاد الوحش والحشرات والسباع"(١٢٨)، كما يبرز جانبًا مما تحتويه أرضها من أنواع الحيوانات والحشرات التي تخالط الأعراب في حياتهم فتزيد بذلك مشقة العيش فيها، وهي على كثرتها يأنس بها الأعراب(١٢٩).

وعلى الرغم من أن في الحيوانات ما ينسب إلى التوحش، فإن وصف الجاحظ لبلاد الأعراب ببلاد الوحش قد لا يقتصر في علته على ذلك، فاعتقادات الأعراب الغريبة(١٣٠) التي تتضمن تهاويل وأحاديث شنيعة عن الجن(١٣١) ربما تفضي إلى شيء من ذلك.

---

(١٢٨) **الحيوان**، ٢٥٦/٦.

(١٢٩) يرد ذكر بعض تلك الحيوانات في قول أعرابي:

تعاورني دين وذل وغربة ... ومزق جلدي ناب سبع ومخلب
وفي الأرض أحناش وسبع وحارب ... ونحن أسارى وسطها نتقلب
رتيلا وطبوع وشبثان ظلمة ... وأرقط حرقوص وضمج وعقرب
ونمل كأشخاص الخنافس قطب ... وأرسال جعلان وهزلى تسرب
ونمر وفهد ثم ضبع وجيأل ... وليث يجوس الألف لا يتهيب
ولم أر آرى حيث أسمع ذكره ... ولا الدب إن الدب لا يتنسب
وعث وحفاث وضب وعريد ... وذر ودحاس وفار وعقرب
وهر وظربان وسمع ودوبل ... وثرملة تجري وسِيدٌ وثعلب

ينظر: **الحيوان**، ٢٥٧/٦-٢٥٨. ولم تتضمن القصيدة الكلب من بين الحيوانات وقد كان أكثرها مخالطة ومعايشة للأعراب. ينظر: الجاحظ، **الحيوان**، ٤٢٢/٤.

(١٣٠) **الحيوان**، ٤٦/٦-٤٧.

(١٣١) المصدر السابق، ٤/ ١٥٥. ما يذكره الجاحظ عن اعتقادات الأعراب في الجن يطابق ما ورد في بعض المصادر. ينظر: الراغب الأصفهاني، =

بيد أن المعالجة الواسعة لكتابات الجاحظ حول بيئة الأعراب تبرز جوانب أكثر عمقًا وتفصيلاً لتلك الصورة على نحو يكشف سعة اهتمامه بحياتهم ودقة رصده لطبيعة بيئتهم، فمن حيث الطقس أكثر بلاد العرب موصوفة بشدة الحر في الصيف، وشدة البرد في الشتاء؛ لأنها بلاد صخور وجبال، والصخر يقبل الحر والبرد[١٣٢]، ومن حيث السكنى لا يكتفي الجاحظ بالاقتصار على الإشارة إلى مواضع الأعراب التقليدية، وهي عمومًا في جميع الآفاق من الأرض[١٣٣] حيث توافر القفار[١٣٤]، بل هو يتتبع مناطق وجودهم وحركة نزوحهم الواسعة في المجتمع الإسلامي في زمانه، فمن بوادي البحرين[١٣٥] والعراق واليمامة والحجاز[١٣٦] كان الأعراب ينتقلون إلى أماكن جديدة، حيث الأوضاع المختلفة تمهد الطريق أمامهم للارتحال، وعلى نحو فردي أو جماعي تشير روايات الجاحظ إلى وجود الأعراب في بلاد فارس[١٣٧] وفي

= أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل، **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**، ت٥٠٢هـ، تحقيق: د. رياض عبدالحميد مراد (دار صادر، بيروت، ط٣، ٢٠١٢م) ٦٠٦/٤-٦١٩. ولم يجد الباحث من كتب قبله بصراحة عن تلك الاعتقادات وعلاقتها بالأعراب.

(١٣٢) المصدر السابق، ٦٩/٥.

(١٣٣) المصدر السابق، ١٩٢/٢.

(١٣٤) **الرسائل، رسالة مفاخرة الجواري والغلمان**، ١٠٥/٢.

(١٣٥) ذكر الجاحظ أرض الدو والصمان والدهناء ورمل يبرين، وكلها تتبع إقليم البحرين. ينظر: **الحيوان**، ٢١٦/٦.

(١٣٦) **الحيوان**، ١٨٢/٦.

(١٣٧) **البيان والتبيين**، ١٤٨/٣.

خراسان[١٣٨] وفي بلاد الشام[١٣٩]، وفي مناطق الثغور[١٤٠]، كما أنه من الملحوظ بشكل خاص وجودهم في أماكن محددة بدقة، إما في المدن كسكناهم مثلاً داخل مربد البصرة[١٤١]، ونزولهم على طرق السابلة وبقرب مجامع الأسواق[١٤٢] وفي الجوامع[١٤٣]، وإما في القرى التي تصل بين المدن كالقرية المسماة بقرية الأعراب على طريق الكوفة[١٤٤].

إن مثل هذا كان ينشأ عن رغبة في تراص اجتماعي يقوم على روابط بدوية لا يميز فيها أعرابي عن آخَر. كانت النواة الأساسية لمجتمع الأعراب غير مستقرة، كما أنها لم تكن مجتمعة قبل ذلك، ولذا لم يكن من العسير أن يبدأ المجتمع الأعرابي في التفكك ليعاد بناؤه في مواضع أخرى ببنيته العائلية وهوما كان يضمن استمرار الرابطة الاجتماعية[١٤٥]. ومع أن طبائع الأعراب كانت عرضة للتغير داخل المدن وهو الأمر الذي كان يزعج الجاحظ[١٤٦]، فإنهم كانوا بطيئين في استجابتهم لتغيير طبيعتهم.

(١٣٨) الرسائل، رسالة كتاب البغال، ٣١٣/٢، رسالة فخر السودان على البيضان، ٢٢٠/١، مناقب الترك، ٦٣/١.

(١٣٩) الحيوان، ٢٥٧/٦.

(١٤٠) البيان والتبيين، ٢٦٢/١.

(١٤١) المصدر السابق، ٢٥٤/٢.

(١٤٢) المصدر السابق، ١٤٦/١.

(١٤٣) المصدر السابق، ٩٣/٢.

(١٤٤) البخلاء، ص٣٨.

(١٤٥) الرسائل، رسالة فخر السودان على البيضان، ٢٢٠/١.

(١٤٦) البيان والتبيين، ١٦٢/١-١٦٣.

ومن الثابت من روايات الجاحظ أن بعضهم لم يكونوا يطيقون البقاء في المدن، وربما مرضوا وماتوا بسبب ذلك[١٤٧]، وكان هذا كافيًا في بعض الأحيان ليثير سخط غيرهم وتضجرهم، خصوصًا إذا ما قورن ذلك بشدة فقرهم في أوطانهم[١٤٨]، وقد قال أحدهم مستنكرًا: "جمعتكم كما يجتمع قزع الخريف، من منابت الشيح والقيصوم، ومنابت القلقل، وجزيرة أبركاوان[١٤٩] تركبون البقر، وتأكلون القضب، فحملتكم على الخيل، وألبستكم السلاح، حتى منع الله بكم البلاد، وأفاء بكم الفيء. قالوا: مرنا بأمرك. قال: غروا غيري"[١٥٠]. وبحسب المعطيات كان الأعراب فخورين ببيئتهم تلك، يحنون لها ويحبونها[١٥١]، وقد كتب الجاحظ: "قيل لأعرابي: كيف تصنع إذا اشتد القيظ وانتعل كل شيء ظله؟ قال: وهل العيش إلا ذاك، يمشي أحدنا ميلاً فيرفض عرقًا، ثم ينصب عصاه ويلقي عليها كساءه، ويجلس في فيئه يكتال

(١٤٧) **الرسائل، رسالة الحنين إلى الأوطان**، ٢/ ٣٩٠، ٣٩٧-٣٩٨، ٤٠٠.

(١٤٨) المصدر السابق، ٢/ ٤٠٩. يرى ابن خلدون أن العرب كانوا "أكثر بداوةً من سائر الأمم، وأبعد مجالاً في القفر، وأغنى عن حاجات التلول وحبوبها لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش". انظر: **العبر**، ١/ ٢٦٧.

(١٤٩) جزيرة أبركاوان: لا وجود لهذا الموضع في كتب البلدان، ولعل المقصود بركاوان: وهي ناحية في بلاد فارس. انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان** (دار صادر، بيروت، ط٨، ٢٠١٠م) ١/ ٣٩٩، ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ٣/ ١٧.

(١٥٠) **البيان والتبيين**، ٢/ ١٣٣، وقد ورد الخبر مفصلاً في بعض المصادر. ينظر: الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٦/ ٥١٠.

(١٥١) **الرسائل، رسالة الحنين إلى الأوطان**، ٢/ ٣٨٨، ٤٠٦.

الريح، فكأنه في إيوان كسرى"[١٥٢]. وفي الحقيقة فإن ثمة ما يشير إلى أن الشعور بالفخر لم يكن ليحول بين الأعراب وعقد المقارنة بين مستوى المعيشة عندهم وعند غيرهم من الناس، وخاصة بين نساء الأعراب اللواتي كن يتحملن قسطًا كبيرًا من المسؤولية، وإحدى تلك الحالات التي يعرضها الجاحظ تختص بأعرابية كانت تسأل زوجها عن أي العيشين أفضل عيشهما وهما يأكلان التمر ويشربان اللبن، أم عيشة بني مروان (بني أمية)؟ فقال: "هم أطيب طعامًا منا، ونحن أردأ كسوة منهم، وهم أنعم منا نهارًا، ونحن أظهر منهم ليلاً"[١٥٣].

غير أن من الحق القول إنّ مصنفات الجاحظ بشأن الحياة في بيئة الأعراب تكشف ما يلحق الأعراب من التعب بسبب قلة الغذاء والجفاف المنتشر في البادية "وإن أحدهم ليجوع حتى يشد على بطنه الحجارة وحتى يعتصم بشده معاقد الإزار، وينزع عمامته من رأسه فيشد بها بطنه"[١٥٤]. وعلى الرغم من ذلك فإنه لا يمكن النظر إلى مستوى واحد من الحياة بين الأعراب، إذ تشير بعض رواياته إلى أن أصحاب الإبل خصوصًا كانوا أكثر طعامًا وشرابًا من غيرهم، حتى إن بعض الأعراب كانوا إذا قدموا عليهم أكرموهم باللبن والتمر

(١٥٢) **الرسائل، رسالة الحنين إلى الأوطان**، ٢/٣٩٢-٣٩٣. وكتب كذلك عن أعرابي قوله في حب بلده: "رملة كنت جنين ركامها، ورضيع غمامها، فحضنتني أحشاؤها، وأرضعتني أحساؤها". ينظر: المصدر السابق، ٢/٣٩١.

(١٥٣) **البيان والتبيين**، ٣/١٤٣.

(١٥٤) **البرصان والعرجان**، ص٨٢.

والحيس والخبز والسمن والسلاء[١٥٥]، في حين أشار الجاحظ إلى أنه كانت لهم مصادر أخرى للطعام يقتات عليها الأعراب كالجراد[١٥٦] والضبان والورل واليرابيع[١٥٧] والحيات[١٥٨] والقنافذ[١٥٩]، وهي بطبيعة الحال مما يعايش الأعراب في بيئتهم. ومع ذلك فلم يكن ثمة مشكلة لدى الأعراب بعامة في تقبل الحياة على ذلك النحو الذي يدفع أحد أهل المدن للتعجب من شدة صبرهم عليه، فيرد عليه الأعرابي بقوله: "كيف لا يصبر من وطاؤه الأرض وغطاؤه السماء وطعامه الشمس وشرابه الريح"[١٦٠]. إذ كانت الخيمة المصنوعة من الصوف ووبر الجمل سكنًا متنقلاً[١٦١]، وهو ما أدى إلى بروز نمط للحياة يستجيب لذلك المستوى من المعيشة في ظروف بالغة الصعوبة، فالشتاء ببرده القارص كان موضعًا لتساؤل وجد عند الجاحظ قبولاً في النقل "قيل لأعرابي: ما أعددت للشتاء؟ قال: جُلة ربوضًا، وصيصية سَلوكًا، وشَمْلَة مَكُودًا، وقَرمُوصًا دفيئًا، وناقةً مُجَالحةً"[١٦٢].

---

(١٥٥) **البخلاء**، ص١١٣.

(١٥٦) **الحيوان**، ٥/٥٦٥.

(١٥٧) المصدر السابق، ٦/١٤٣.

((١٥٨ المصدر السابق، ٤/٤٣.

(١٥٩) **الرسائل، رسالة مفاخرة الجواري والغلمان**، ٢/١٠٥.

(١٦٠) **الرسائل، رسالة الحنين إلى الأوطان**، ٢/٣٨٨.

(١٦١) **الحيوان**، ٥/٤٦١.

(١٦٢) **البيان والتبيين**، ٣/٢٣٠-٢٣١. والجُلة: وعاء من الخوص يكنز فيه التمر، ربوضًا: أي عظيمة ثقيلة الحجم، والصيصية: شوكة الحائك التي يسوي بها السدة واللحمة، سلوكًا: الخيط الذي يخاط به الثوب، =

كان لهذا الشكل من الحياة أثره البالغ في صعوبة العيش في المجتمع الأعرابي، فمواجهة ظروف الحياة وتقلباتها اقتضت أن يكتسب الفرد القوة والشجاعة وسط عشيرته(١٦٣) إلى جانب الإصرار والتحدي، وهي عناصر يحتاج إليها من يسميهم الجاحظ بطلاب الطوائل(١٦٤)، كما أن حياتهم في البادية أتاحت لهم معرفة الآثار والنجوم والأنواء "لفرط الحاجة، وطول المدارسة، ودقة الأذهان، وجودة الحفظ"(١٦٥). وأتاحت لهم كثرة التنقل معرفة الطرق بين البلاد وتقدير المسافات(١٦٦) إلا أن أهم الميزات التي اكتسبها الأعراب في مجتمعهم كانت تلك المتعلقة بالضمير الجمعي، فشعور بعضهم ببعض ولد مجتمعًا متماسكًا في مواجهة المخاطر وبخاصة في سنوات الجفاف التي كانت تمر على البادية، يذكر الجاحظ أن أعرابيًا وفد على الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك فقال له: "أتت علينا ثلاثة أعوام؛ فعام أكل الشحم، وعام أكل اللحم وعام انتقى العظم. وعندكم أموال، فإن كانت لله فادفعوها إلى عباد الله، وإن كانت لعباد الله فادفعوها إليهم، وإن كانت لكم فتصدقوا، فإن الله يجزي المتصدقين.

= مكودًا: الشيء المكود هو الدائم الذي لا تنقطع مادته، قرموصًا: أي حفرة يستدفئ فيها الإنسان من البرد، مجالحة: هي الناقة التي تأكل السمر والعرفط كان فيه ورق أو لم يكن. ينظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ٦٦٣/١، ١٥٥٩/٣، ٢٥٣٦/٤، ٢٠٧٣/٣، ٤٢٤٦/٦، ٣٦٠٦/٥، ١/ ٦٥١.

(١٦٣) **الحيوان**، ٣٤٦/٦-٣٤٧.

(١٦٤) **الرسائل، مناقب الترك**، ٢٢/١.

(١٦٥) **الحيوان**، ٦/ ٣١.

(١٦٦) **البيان والتبيين**، ١٠٢/٢.

قال: فهل من حاجة غير ذلك؟ قال: ما ضربت إليك أكباد الإبل أدرع الهجير، وأخوض الدجى لخاص دون عام"[١٦٧].

كانت حاجات المجتمع الأعرابي تدفع إلى التواصل مع الخلافة، ومن الواضح من روايات الجاحظ أن الأعراب كانوا يحظون باهتمام وتقدير الأمويين حيث عد بقاؤهم بجوار الخلفاء أمرًا مرغوبًا فيه[١٦٨]. وذلك لعلاقات التصاهر التي كانت بينهم[١٦٩]، ولما تميزوا به من حب الصراحة والوضوح[١٧٠]، وكان من السهولة بمكان رؤية آثار تلك العلاقة الجيدة بتجلياتها في كثرة وفود الأعراب إلى دمشق للسلام على الخلفاء[١٧١]، أو في كثرة قدومهم لطلب العون والمساعدة للبادية في أيام الجدب وشدة القحط[١٧٢]. كان مستوى التراص آنذاك قد بلغ الذروة بين الطرفين بحيث نال الأمويون من المديح ما خلد ذكرهم[١٧٣]، وكانت مكانة قريش تنمو بفضل تلك العلاقة، ليعبر عنها أحد الأعراب بقوله:

---

(١٦٧) المصدر السابق، ٢/٧٠-٧١.

(١٦٨) **الرسائل، رسالة في الحنين إلى الأوطان**، ٢/٣٩٧.

(١٦٩) ابن خياط، أبو عمر، خليفة بن خياط، ت٢٤٠هـ **تاريخه**، تحقيق: د. أكرم ضياء العمري (دار طيبة، الرياض، ط٢، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ص٢٩٩، ٣٠٩، البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٥/٣١١، مؤلف مجهول، من رجال القرن الرابع الهجري، **العيون والحدائق في أخبار الحقائق** (مكتبة المثنى، بغداد، د. ط، د.ت) ٣/١٢-١٣.

(١٧٠) **البيان والتبيين**، ٢/٧٠، ٣/١٥٦، المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ٣/١٢٨.

(١٧١) **البخلاء**، ص٢١٩، **الرسائل، رسالة في الحنين إلى الأوطان**، ٢/ ٣٩٧.

(١٧٢) **البيان والتبيين**، ٢/٧٠-٧١، ٤/٨٩-٩٠.

(١٧٣) المصدر السابق، ٣/٣٦٦.

"كفى بقريش شرفًا أنهم أقرب الناس نسبًا برسول الله ﷺ وأقربهم بيتا من بيت الله"(١٧٤).

كان هذا التجانس قد شكل بنية ترابطية امتدت عند الجاحظ ليرى فيها هوية الدولة "دولة بني مروان عربية أعرابية وفي أجناد شامية "(١٧٥) وكان يتمنى لو أن العباسيين احتفظوا بتلك الهوية "دولة بني العباس عجمية خراسانية"(١٧٦). وكما هو واضح، فمفهوم الجاحظ عن الهوية العربية للدولة تعرض للاضطراب في العصر العباسي، وسببه أن المجتمع الأعرابي لم يعد في صدارة الاهتمام من قبل الخلفاء العباسيين، ويمكن ملاحظة جانب من تلك الصورة في الانتقادات الحادة التي كانت توجه للأعراب في بلاط الخلافة العباسية والتي وثق الجاحظ بعضها، كحادثة الأعرابي الذي حضر مجلسًا للفضل بن يحيى(١٧٧) حيث

(١٧٤) المصدر السابق، ٢/٦٧.

(١٧٥) المصدر السابق، ٣/٣٦٦.

(١٧٦) **البيان والتبيين**، ٣/٣٦٦.

(١٧٧) هو الفضل بن يحيى البرمكي، ولد سنة ١٤٧هـ. كان أخا للخليفة هارون الرشيد من الرضاعة، وكان أكثر البرامكة كرمًا. تولى خراسان وجهات المشرق فأحسن السيرة. مات محبوسًا عام ١٩٢هـ وقيل ١٩٣هـ وذلك في سياق النكبة التي أوقعها الرشيد بأسرته. ينظر: الجهشياري، أبو عبدالله محمد بن عبدوس، ت٣٣١هـ، **الكتاب والوزراء**، تحقيق: مصطفى السقا، وآخرين (مكتبة مصطفى البابي وشركاه، القاهرة، ط٢، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م) ص١٩١، الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي، ت٤٦٣هـ، **تاريخ بغداد أو مدينة السلام** (دار الكتاب العربي، بيروت، د.ط، د.ت) ١٢/٣٣٤، ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ٤/٢٧-٣٦.

أفرط هو ومن معه في ذم الضب ومن يأكله، فلما خرج الأعرابي قال - ساخطًا -:

وعلج يعاف الضب لؤمًا وبطنةً

وبعض إدام العلج هام ذباب[١٧٨]

كان ذلك ولا شك يخلق صعوبات للأعراب بخاصة وللعرب على وجه أعم، وفي هذه الظروف سعى الجاحظ إلى بيان فضلهم وعلاقتهم بالخلافة[١٧٩] كما سعى إلى ربطهم بغيرهم من الأجناس حول العباسيين، يقول في إحدى رسائله: "وكتابنا هذا إنما تكلفناه لنؤلف بين قلوبهم التي كانت مختلفة، ولنزيد الألفة إن كانت مؤتلفة، ولنخبر عن اتفاق أسبابهم لتجتمع كلمتهم، ولتسلم صدورهم، وليعرف من كان لا يعرف منهم موضع التفاوت في النسب، وكم مقدار الخلاف في الحسب، فلا يغير بعضهم مغير، ولا يفسده عدو بأباطيل مموهة وشبهات مزورة، فإن المنافق العليم، والعدو ذا الكيد العظيم، قد يصور لهم الباطل في صورة الحق، ويلبس الإضاعة ثياب الحزم"[١٨٠]. لكن مساعي الجاحظ في هذا السياق لا ينبغي أن تتسبب في صرف النظر عن طريقته في عرض مكانة الأعراب وإسهامهم في المجتمع، بحيث لا يمكن أن ينظر لاختيار الجاحظ لنماذج من الأعراب الحمقى من الأمراء وخطباء المنابر الذين خدموا الخلافة الأموية دون

(١٧٨) الحيوان، ٦/٩١-٩٢.

(١٧٩) الرسائل، رسالة مناقب الترك، ١/٢٢-٢٣.

(١٨٠) المصدر السابق، ١/٢٩.

أن يكون لذلك تأثيره في مزاج خلفاء بني العباس[١٨١]. وإذا ما قدر لموقف الخلافة العباسية من الأعراب أن يكون مؤثراً في المجتمع الإسلامي، فإن كتابات الجاحظ حول نظرة المجتمع للأعراب ليست وليدة تلك الظروف، فأخبارهم مستقاة في معظمها من حياتهم في العصر الأموي، إذ كان لحضورهم في المدن واختلاطهم بسكانها فسحة لمعرفتهم عن كثب، وما يصوره الجاحظ من نتائج ذلك الاختلاط رهينة حوادث، لها أسبابها ودلالاتها، ولا تتعدى في حدودها القصوى العبث[١٨٢]، والتعرض بهم[١٨٣]، وهو مقدار يمكن تجاهله إذا ما قورن بالحوادث الفردية التي سجلها الجاحظ. وهي كذلك لا تنزع منهم بعض صور الاتزان في التعامل معهم بصفتهم مكونًا بشريًا له حضوره الاجتماعي، وضمن هذا الإطار قد يفهم قبولهم للشهادة[١٨٤]، وإعجاب الحضر ببعض مزاياهم[١٨٥].

كانت قدرة المجتمع الإسلامي في استيعاب الأعراب متسعة، فالمدن وفرت أسباب المعيشة[١٨٦] وطلب العلم الشرعي[١٨٧]،

(١٨١) **البيان والتبيين**، ٢/٢٣٦-٢٣٧.

(١٨٢) المصدر السابق، ٢/٢٥٤.

(١٨٣) **الحيوان**، ٥/١٥٢-١٥٣.

(١٨٤) **البيان والتبيين**، ٢/٣٢٢-٣٢٣.

(١٨٥) المصدر السابق، ٢/٣٢٠، المبرد، **التعازي والمراثي**، تحقيق: محمد الديباجي (دار صادر، بيروت، ط٢، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م) ص٢٦٠.

(١٨٦) **البخلاء**، ص٢٢٤-٢٢٥ **البيان والتبيين**، ٢/٧٠، ٣/٥٠-٥١.

(١٨٧) **الحيوان**، ٢/٢٣١-٢٣٣، ٣٥٧-٣٥٨.

كما أن الصلات بين البادية والأعراب المستوطنين ظلت وثيقة، وذلك بفضل زيارات الأقرباء المتكررة[١٨٨]، وهي وإن أسهمت في تأسيس وعي مزدوج بين الطرفين، فإن الأعراب من جهتهم ظلوا يرقبون بشيء من التذمر بعض طبائع أهل المدن التي تخالف ما جرت عليه أخلاقهم، كمثل قول أحدهم -مفاخرًا-: "نحن والله آكل منكم للمأدوم، وأكسب منكم للمعدوم، وأعطى منكم للمحروم"[١٨٩]. وهو جانب أكسب الأعراب شعورًا بالتحدي في مجتمع بدا كما لو كانوا غير راضين عنه.

حياة الأعراب الاقتصادية:

كانت معيشة الأعراب في البادية مرتبطةً بشكل رئيس بالتقلبات المناخية السائدة فيها، التي كانت عاملاً حاسمًا له تأثيراته الكبيرة في حياتهم الاقتصادية، وتدل المعطيات المستقاة من كتابات الجاحظ أن نشاطات الأعراب الاقتصادية - على ما هو الوضع دائمًا -كانت تتركز في

---

(١٨٨) **البيان والتبيين**، ١/١٩٤.

(١٨٩) المصدر السابق، ١/٢٩٨. يساند ابن خلدون الرأي القائل بأفضلية البدو على الحضر، وذلك حين يقول: "إن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر، وسببه أن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر؛ .... وما يحصل فيها من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة إلى أهل الحضر أقل بكثير، فهم أقرب إلى الفطرة الأولى وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة وقبحها، فيسهل علاجهم من علاج الحضر". انظر: **العبر**، ١/٢١٥-٢١٦.

الرعي والزراعة وما يتفرع منهما من أشكال ومظاهر، وقد تبدو تجليات ذلك واضحة في قول أحد الأعراب: "أصابتنا سنة شديدة، ثم أعقبتها سنة تتابع فيها الأمطار فسمنت الماشية وكثرت الألبان والأسمان"(١٩٠) وعلى هذا النحو كانت حياة الأعراب الاقتصادية وقفًا على نزول الأمطار وهو ما انطوى على أسلوب متنقل لم يكن ليساعد على استقرار واستمرار مواردهم المالية استمرارًا. على أنهم كانوا يعتمدون على مصادر أخرى مبكرة موارد إضافية لتحسين أوضاعهم الاقتصادية، أشار الجاحظ إلى بعضها - ولو بشكل غير مباشر- وذلك في معرض وصفه للترك، وهي مصادر تعتمد في جلها على استخدام القوة، ومن السلبية للجفاف على حياة الأعراب، حيث اللافت في هذا الشأن أن الجاحظ عد الموارد التي تنشأ من ذلك الاستخدام داخلةً في باب الصناعات(١٩١)،

(١٩٠) **الحيوان**، ٢/ ١٧٠.

(١٩١) كان مما قال في هذا الشأن: "وكذلك الترك أصحاب عمد وسكان فياف وأرباب مواش، وهم أعراب العجم ... فحين لم تشغلهم الصناعات والتجاراتُ، والطب والفلاحة والهندسة، ولا غرس ولا بنيان، ولا شق أنهار، ولا جباية غلات، ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصيد وركوب الخيل، ومقارعة الأبطال، وطلب الغنائم وتدويخ البلدان، وكانت هممهم إلى ذلك مصروفة، كانت لهذه المعاني والأسباب مسخرة ومقصورة عليها وموصولة بها، أحكموا ذلك الأمر بأسره، وأتوا على آخره، وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم، ولذتهم وفخرهم، وحديثهم وسمرهم". ينظر: **الرسائل، رسالة مناقب الترك**، ١/ ٧٠-٧١. وملحوظات الجاحظ هنا تبدو متواضعةً جدًا مقارنة بما كتبه ابن خلدون عن الموضوع نفسه، حيث قرن تلك الأفعال بالتوحش واستخدم عبارات تؤكد عدم رضاه عن تلك الطبائع. ينظر: **العبر**، ١/ ٢٦٢-٢٦٣.

وهذا يوحي بقدر من المجاملة للترك أكثر منه للأعراب[١٩٢]. وكان لخصوصيات ذلك كله انعكاساته على حياتهم شدةً ورخاءً، وكانت هذه الحقيقة موضع لحظ الجاحظ ونظره، وتظهر إحدى مروياته الآثار الاقتصادية: يُروى عن أحدهم قوله: "والله لقد خرجنا في إثر قوم قد تقدمونا بمراحل ونحن حفاة، والشمس في قلة السماء، حيث انتعل كل شيء ظله، وإنهم لأسوأ حالاً منا، وإن مهادهم للعفر، وإن وسادهم للحجر، وإن شعارهم للهواء، وإن دثارهم للخواء"[١٩٣]. وثمة أساس للافتراض بأن الجاحظ كان متعاطفًا مع الأعراب حين عد حياتهم الاقتصادية أكثرها صعوبةً بين البشر "وقد يصيب القوم في باديتهم ومواضعهم من الجهد ما لم يسمع به في أمة من الأمم، ولا في ناحية من النواحي"[١٩٤]. وكما تدل جميع القرائن، لم تكن الإمكانات الكامنة في البادية لتسمح ببناء حياة اقتصادية مثلى، إذ حتى في حالة الرخاء كان الأمر لا يتجاوز السعة، وهو ما يوحي بأن الأعراب كانوا يعيشون نوعًا من المساواة في المعيشة الاقتصادية، وقد عبر الجاحظ عن ذلك في قول أحد الأعراب: "... لا نعلم أحدًا أخصب منا عيشًا، فالحمد لله على ما بسط من السعة، ورزق من الدعة، أو ما سمعت قول قائلنا وكان والله عالما بلذيذ العيش:

---

(١٩٢) **الرسائل، رسالة في الحنين إلى الأوطان**، ٢/٣٩٣.

(١٩٣) المصدر السابق، ٢/٣٨٨.

(١٩٤) **البخلاء**، ص٣١٣.

إذا ما أصبنا كل يوم مذيقة
وخمس تميرات صغار كنائز
فنحن ملوك الأرض خصبًا ونعمةً
ونحن أسود الغاب عند الهزاهز"(١٩٥)

لكن إحدى الإشارات المهمة التي نقلها الجاحظ في السياق نفسه، حددت بوضوح أساس الحياة الاقتصادية القائمة على تربية الماشية وزراعة النخيل، وبحسب إفادته كان معظم الناتج داخلاً في الاستهلاك المحلي، وهذا يعني أنه لم يكن ثمة استثمار اقتصادي في هذا الجانب، ومما يؤكد ذلك نوعية الزكاة التي كان الأعراب يخرجونها متى ما حل موسمها إذ لم يكن النقد من بينها، يروي الجاحظ: "إذا كانت السنة مخصبة كثر الأقط واللبن وقل التمر، وإذا كانت السنة مجدبة كثر التمر وقل اللبن والأقط... إذا كان العام خصيبًا ظهر في صدقة الفطر البياض، يعني الأقط، وإذا كان جديباً ظهر السواد، (يعني التمر)"(١٩٦). كما لحظ أن مواجهة الجدب بالتمر لم تكن سوى حصيلة كنزه في وقت الرخاء لاستخدامه في وقت الشدة(١٩٧). بيد أنه حتى في الظروف المواتية التي كان يتوافر فيها المال، فإن الأعراب كانت تحكمهم بعض العادات والطبائع التي كانت تعجل بفقدانه، واعتمادًا على ما يرويه الجاحظ يمكن عد سياسة

(١٩٥) الرسائل، رسالة الحنين إلى الأوطان، ٢/ ٣٩٤.

((١٩٦ الحيوان، ٣/ ١١٨.

(١٩٧) الرسائل، رسالة في الحنين إلى الأوطان، ٢/ ٣٩٤.

تثمير المال عملاً غير مرغوب فيه بين الأعراب، يقول أحدهم في ذلك:

يقولون ثمر ما استطعت وإنما
لوارثه ما ثمر المال كاسبه
فكله وأطعمه وخالسه وارثًا
شحيحًا ودهرًا تعتريك نوائبه[١٩٨]

كان لتردي الأحوال الاقتصادية في البادية أثره في دفع الأعراب إلى الارتحال إلى المدن لطلب العمل أو للتكسب أو لطلب العون والمساعدة، وتبدو أخبار الجاحظ في المهن التي أقبل عليها الأعراب ضئيلة ومحدودة، كما أنها فردية الطابع، فما عدا مهنة حفر القبور[١٩٩] يذكر ما يشير إلى أن بعضهم كانوا عارفين بطبيعة المهن الأخرى ووظائفها وهو ما يطرح تساؤلات حول مدى ارتباطهم بها، ومن ذلك الزراعة[٢٠٠] والصرافة[٢٠١]. أما على صعيد التكسب، فنزول الأعراب على طرق السابلة ومجامع الأسواق في المدن[٢٠٢] كان من بين غاياته إتمام صفقات البيع حيث كان الأعراب يجلبون إليها الضبان[٢٠٣] والإبل والخيل وما يستحق أن يعرض من المتاع

(١٩٨) الحيوان، ٨٦/٣.
(١٩٩) البيان والتبيين، ١١/٤.
(٢٠٠) المصدر السابق، ١٤٦/٢، ١٥٣-١٥٤.
(٢٠١) المصدر السابق، ٩٦/٢.
(٢٠٢) المصدر السابق، ١٤٦/١.
(٢٠٣) الحيوان، ٧٨/٦.

الذي تنتجه البادية[٢٠٤]، ويبدو أن هذا قد أسهم إسهامًا كبيرًا وإلى حد كبير في تلبية متطلبات الأعراب الاقتصادية وسد حاجاتهم، لكن فئة منهم لم تكن قادرة على تحمل أعباء الحياة وتكاليفها القاسية، ولم يكن قدومها إلى المدن حينذاك إلا لطلب العون والمساعدة، وقد تتبع الجاحظ أخبار هؤلاء وطرائقهم في ذلك، ومما رواه في هذا الشأن قول أحد الأعراب وهو يسأل الناس: "رحم الله امرأً لم تمج أذنه كلامي، وقدم لنفسه معاذة من سوء مقامي، فإن البلاد مجدبة، والحال سيئة، والعقل زاجر ينهى عن كلامكم، والفقر عاذر يحملني على إخباركم، والدعاء أحد الصدقتين، فرحم الله امرأً أمر بمير، أو دعا بخير"[٢٠٥]. وقد اتخذ بعض الأعراب المساجد موضعًا لطلب الصدقة، ومما رواه الجاحظ في ذلك قول أحدهم: "أما بعد فإنا أبناء سبيل، وأنضاء طريق، وفلٌّ سنة، فتصدقوا علينا، فإنه لا قليل من الأجر، ولا غنى عن الله، ولا عمل بعد الموت. أما والله إنا لنقوم هذا المقام وفي الصدر حزازة، وفي القلب غصة"[٢٠٦]. والواقع أن الأعراب كانوا أشبه بالوعاظ منهم بالسائلين، إلا أن حسن منطقهم كان أداةً استغلوها في بيان الحال ولفت الأنظار إليهم، يروي الجاحظ أن أعرابيًا وقف يسأل الناس:

(٢٠٤) **البيان والتبيين**، ٤/ ١١. كان من بين ما تبيعه الأعراب ما ينسجونه من مطارف الخز والأكسية وشقاقٍ من الشعر. انظر: ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ٨/٣٠٩.

(٢٠٥) **البيان والتبيين**، ٤/٦٥.

(٢٠٦) **البيان والتبيين**، ٢/٩٣. والفل هو: الثلم في أي شيء كان، وقد تعني الكسر والانهزام. ينظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ٥/٣٤٦٥-٣٤٦٦.

ألا فـتى أروع ذا جـمـال
من عـرب الناس أو الموالي
يعـينني اليـوم على عـيـالي
قـد كَـثـروا همي وقل مـالي
وسـاقهم جدب وسوء حـال
وقد مللت كثرة السؤال[٢٠٧]

لكن حسن ذلك المنطق لم يكن ليلقى على الدوام تجاوبًا من المجتمع، إما لضيق اليد وإما لكثرة الأعراب الوافدين على المدن بحيث أصبح طلب العون معها ظاهرةً مألوفة يحجم عنها كثير من الناس، وهو ما كان مثار سخط الأعراب وضيقهم باعتبار المال وديعة الله عندهم، وأحد المواقف المؤثرة التي تعبر عن حالة الأعراب النفسية في التعاطي مع تلك الظاهرة، قول أحدهم وقد وقف على قوم فمنعوه: "اللهم اشغلنا بذكرك، وأعذنا من سخطك، واجنبنا إلى عفوك، فقد ضن خلقك على خلقك برزقك، فلا تشغلنا بما عندهم عن طلب ما عندك، وآتنا من الدنيا القنعان، وإن كان كثيرها يسخطك، فلا خير فيما يسخطك"[٢٠٨]. وفي كل هذه الحالات ومثيلاتها أيضًا[٢٠٩] لم يكن طلب العون إلا لسد

(٢٠٧) **البيان والتبيين**، ٧٦/٤.

(٢٠٨) المصدر السابق، ٧٧/٤. وورد مزيد من الأخبار في تلك الحالة التي كانت تنتاب الأعراب. ينظر: ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ٤١٨/٣-٤٢٧.

(٢٠٩) المصدر السابق، ٧٨/٤، ٨٩-٩٠، ٩٢، ٩٧، **الحيوان**، ١٥٢/٧، البلاذري، **انساب الأشراف**، تحقيق: د. محمد حميد الله (دار المعارف، القاهرة، ط٣، د.ت) ٤٩٦/١.

الحاجة الضرورية مع استشعار الحرج البالغ، ويبدو الجاحظ متعاطفاً مع الأعراب في هذا الشأن، فما أورده لم يحمل معه دلائل الامتعاض. على أنه لم يقدر له أن يعيش ليرى امتدادات الآثار السلبية لأوضاع الأعراب الاقتصادية في الخلافة وكيف قادت بعضهم إلى الانضمام إلى حركات الثائرين عليها(٢١٠).

وهكذا اكتملت صورة الأعراب في كتابات الجاحظ مشكِّلةً في مجموعها العام مادةً علميةً وتاريخيةً ارتبطت أهميتها بالسياقات المبكرة للتاريخ الإسلامي وأحداثه التي شكلت منعطفات مفصلية في مسيرة الأمة، كان للأعراب ولا شك أثر مهم في صياغاتها العامة كما كانوا أحد أطرافها التي تعرضت لآثارها، حيث قدم الجاحظ وصفاً دقيقاً تميز بقوة ملاحظته سلوك الأعراب إذ رصد من خلاله شخصيتهم وضمن ذلك لمحات من آرائه النقدية، وكان لعمق قراءاته التحليلية أثره في تفسير المواقف وتوضيح العلل، وهو ما ساعد على فهم أعمق لأدوارهم البشرية ومكانتهم الاجتماعية ومنزلتهم التاريخية، بحيث عد ذلك شهادةً تاريخيةً استحقت التقصي والتأمل.

(٢١٠) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٩/ ٣٣٠، الهمذاني، عبدالجبار بن أحمد، ت٤١٥هـ، **تثبيت دلائل النبوة**، تحقيق: عبدالكريم عثمان (دار العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م) ٢/ ٤٤٣، ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد، ت٥٩٧هـ، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا ومصطفى عبدالقادر عطا (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م) ١٢/ ٨٥-٨٦.

الخاتمة:

نال الأعرابُ اهتمامًا كبيرًا في كتابات الجاحظ؛ إذ سَرَدَ من خلال الروايات والمشاهدات كمّاً هائلاً من الأخبار التي غلبت عليها أشكالُ المعرفة التاريخية، وكان لهذا الاهتمام أسبابه الواقعية التي ارتبطت بإعجاب الجاحظ الشديد بسلامة ورصانة لغتهم الفصحى، فكانَ ذلك سَنَدًا له في الرد على الشعوبيين الذين أرادوا حرمان العرب من حقهم في الفصاحة والبيان.

ولقد قدم الجاحظ من خلال كتاباته عن الأعراب تصورًا واضحًا لمفهوم مصطلح الأعراب ودلالات الكلمة لديه، حيث كان دقيقًا في استخدام المصطلح حين ربطه بالموضع، في وقت كانت معظم الكتابات اللغوية متأرجحة بين الموضع والجنس. وكان تصور الجاحظ مبنيّاً على أساس ارتباطهم بالمجتمع العربي، بل عَدِّهم أصلَ العرب ومادته التي خرجوا منها ليوظِّفَ في ذلك القول المنسوب لعمر رضي الله عنه، وليؤكد من خلاله أهمية الأعراب ودورهم في المجتمع الإسلامي.

وكان من الطبيعي والحال كذلك أن تستحوذ شخصية الأعراب على فكر الجاحظ بحثاً وتقصّياً حيث سعى لتحديد صورة تلك الشخصية التي حملت في مضامينها التفصيلية واقعية الجاحظ وفراسته ودقة نظرته، إذ من ناحية الملامح الشكلية قدم نماذج لأشخاص تعلو وجوهَهم الدمامةُ ليظهر من خلالها قسوة الحياة وشظف العيش، مسوِّغًا ذلك بطبيعة

تأثرات البيئة في البشر واختلافهم تبعاً لظروف المكان. مع ظهور جوانب في بعض تلك الملامح مثيرة للدعابة والطرافة وذلك على نحو لا تخفى معه انتقائية الجاحظ وروحه المرحة. أما من ناحية طبائع الأعراب وأخلاقياتهم فقد استطاع الجاحظ أن يطرح رؤيته في سلوك الأعراب وخلفياته المسببة وتعليلاته المعمقة، ورغم ما أحاط ببعض جوانب تلك الرؤية من نظرة تعميمية تجنب الجاحظ إسقاطاتها على حوادث أو وقائع بعينها، إلا أنها لم تؤثر في السياق العام لتلك الرؤية، حيث احتفظ الجاحظ ببعض الملاحظات الشخصية القاسية التي من الممكن أن تصدر من غيرهم من البشر دون أن تختص بهم. ومع ذلك فقد قدم دلالات لا تخلو من مضامين أخلاقية تعبر عن طبيعة متدينة، تميل في الأغلب إلى البساطة وعدم حب التكلف في القيام بالأمور الشرعية.

وقد ظهر من خلال ما كتبه الجاحظ عن المجتمع الأعرابي اعتباره النواةَ أو البذرة التي تشكلت منها المجتمعات الأخرى، وهو يرى في خصوصيته تلك طابعاً فريداً من حيث تميزه بالبساطة والانفتاح وغياب التعقيد وسهولة التشتت والفوضى، حيث من السهل تفككه وإعادة اجتماعه لقوة ومتانة علاقاته العائلية. ورغم قسوة ظروف الحياة يعد الجاحظ المجتمع الأعرابي مجتمعاً محبّاً للحياة مطبوعاً على الإقبال على الدعابة والمرح. وهو ما كان يراه الجاحظ سبباً في قربهم من خلفاء بني أمية مع ما أتيح لهم من علاقات

التصاهر. وعلى كون طبائع الأعراب عرضةً للتغيُّر داخل المدن، وهو أمرٌ قد أزعج الجاحظ، إلا أنها استعصتْ فكانت استجابتهم لذلك أكثر بطئًا وأقل ملاحظةً؛ لما ألفوه في البادية من طرائق عيش مُحدَّدة فضلاً عمّا كانوا يرونه في المدن مخالفاً لما جرت عليه أخلاقهم وعاداتهم.

وقد ظهر مما كتبه الجاحظ عن معيشة الأعراب أنها كانت مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالتقلبات المناخية التي شَكَّلت عاملاً حاسماً له تأثيراته الكبيرة في حياتهم الاقتصادية، كما أنها كانت تتركز على الرعي والزراعة، وهو ما يوحي بأن الأعراب كانوا يعيشون نوعاً من المساواة في المعيشة الاقتصادية. وكان لخصوصيات ذلك كله انعكاساته على حياتهم شدةً ورخاءً، وكانت هذه الحقيقة موضع ملاحظة الجاحظ ونظره، وهو ما كان يدفع الأعراب للارتحال إلى المدن لطلب العمل أو للتكسب أو لطلب العون والمساعدة.